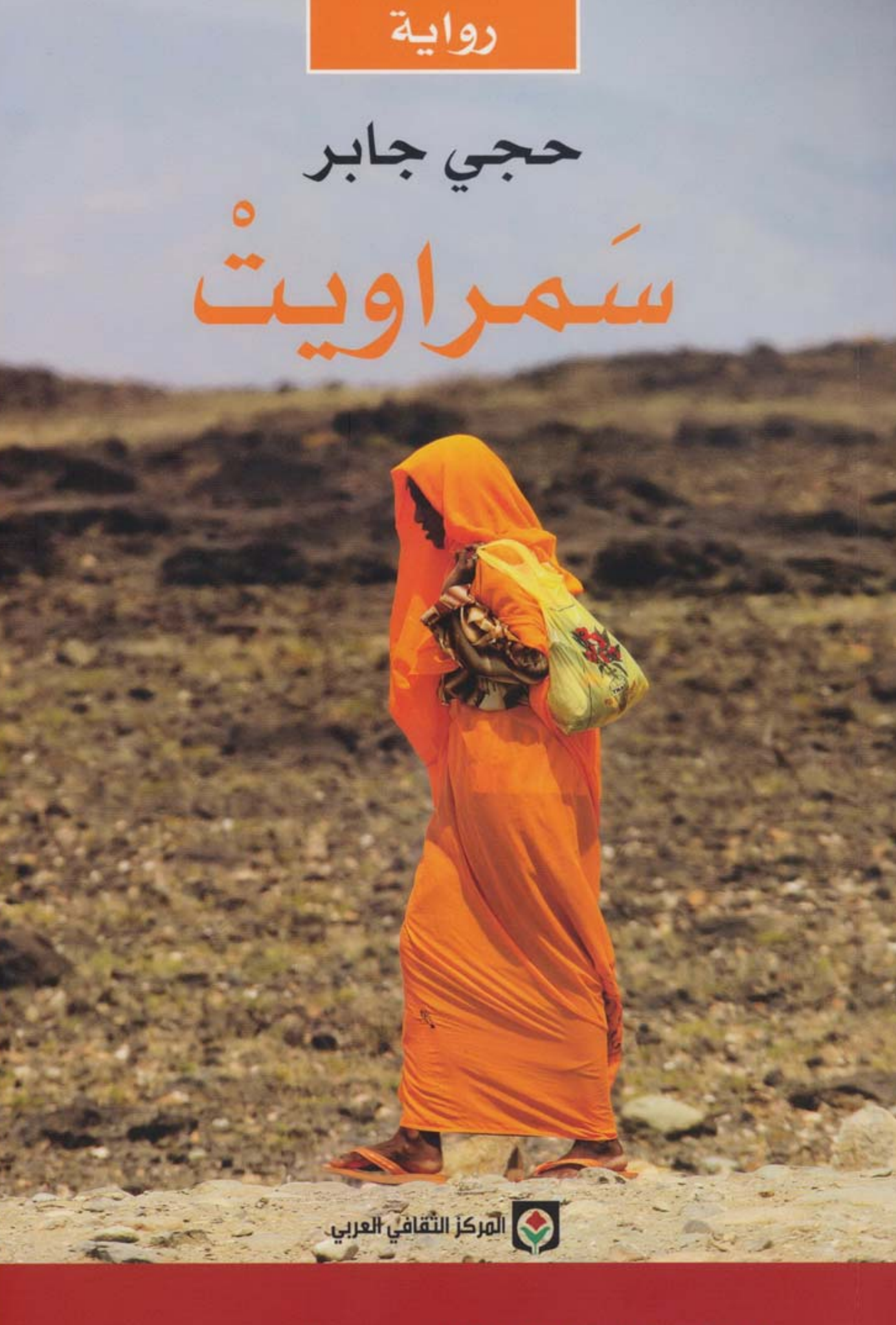
رواية

حجي جابر

سَمراويتْ



المركز الثقافي العربي

جائزة الشارقة للإبداع العربي 2012

حجي جابر

سَمراويت

رواية



المركز الثقافي العربي

حجي جابر

سَمراويتْ

الكتاب
سَمراويت
تأليف
حجي جابر
الطبعة
الثانية، 2012
عدد الصفحات: 192
القياس: 14 × 21
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-557-1

الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651
فاكس: 305726 522 212+
Email: markaz@wanadoo.net.ma
بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 750507 01 ـ 352826 01
فاكس: 343701 1 961+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

صورة الغلاف:
«من إرتريا» للمصور العالمي
Eric Lafforgue
www.ericlafforgue.com
القصائد:
الشاعر الإرتري محمد الشيخ «مدني»
الشاعر السعودي محمد الثبيتي

إلى روح أبي..

وفاطمتيَّ: أمي وزوجتي..

وسمراويت، التي تأبى حتى الآن..

أن تقبلني صديقاً على الفيس بوك !

ما إن لمحتني سلام أقترب من مودرنا، حتى سارعتْ إلى تنظيف الطاولة التي اعتدتها.

لم تستغرق وقتاً في استحضار ملامحي، ولم يفاجئني ذلك، فالصيف الفائت جعلني مألوفاً بما يكفي هنا.

«سنّي ما سيام». .

قالتها مبتسمة وكأنها تسترجع لقاءنا الأول حين علمت أني لا أتقن إلا التِغْري، فما كان منها سوى مخاطبتي بها رغم تواضع لغتها.

«مساء النور. . يبدو أنك تملكين ما هو أكثر من الجمال. . ذاكرتك قوية»

«امم. . ليس دائماً. . في الحقيقة هذا يتوقف على نوعية الزبائن. . هل لا تزال تفضل الكابتشينو برغوة أكثر؟»

هززت رأسي موافقاً. . وقبل أن تستدير بالكامل عادت إليّ بلؤم:

«لا أعرف إن كان لهذا علاقة بقوة الذاكرة. . لكن هي المرة الأولى التي تجلس مقابلاً للمارّة. .»

ومضت دون أن تنتظر رداً.

رسم الشوقُ على أهدابهِ

لغةً عليا

وعمراً مستحيلا

م. الثبيتي

قطع صوت الكابتن سيل الأفكار التي تموج في رأسي بصخب. دقائق وأكون في أسمرا التي تشكلت في مخيلتي من حكايات الأهل وبعض ما تبثه «إيري تي في».

بقدر ما انتظرت هذه اللحظة يسكنني الخوف، فحتى المدن تملك انطباعاً أول من شأنه أن يقصيك عن ذاكرتها، فلا تغدو سوى عابر لا أثر لك مهما علّمت قدماك في طرقاتها.

كنت مرعوباً من فكرة أن تعاملني أسمرا كمسافر الترانزيت، لا يكاد يحطُّ رحاله حتى تأخذه وجهة أخرى.

كنت مشتاقاً لأجد وجهتي الأخيرة.. وأنا المعتاد على الوجود الطارئ في الأماكن الطارئة.

لا يليق بي أن أقضي العمر كله مسافراً إلى مدينة.. ثم لا أجدها في استقبالي.. أن تنتهي علاقتي بها قبل أن تبدأ، وأنا القادم محمّلاً بالأمنيات في تأسيس ذاكرة جديدة وأشواق مكتملة.

كنت مرعوباً ألا تشكل أسمرا سوى خيبة أخرى تضاف لرصيدي المتخم.

«المدن كالأحلام، وما يبهرك في مدينة ما ليس روائعها السبع، أو السبع والسبعين، بل الجواب الذي تعطيه عن أحد أسئلتك»

يلحّ إيتالو كالفينو بقدر ما تفعل أسئلتي الكبيرة.

ثلاثون عاماً كانت المسافة التي يجب قطعها رجوعاً لردم بحر من الأوجاع.

ذات صيف منتصف السبعينيات قرر والدي الرحيل حين بدأ منغستو يدكُّ مُصوَّع بلا شفقة.

أمي الحامل بي كانت في أسمرا هاربة من لهيب «باصع» كما تفعل كل صيف، ووحيدة إلا من زوديتو.

بدأ الصيف الأخير كما يسميه والدي مربكاً، ولم ينته حتى كانت العائلة تلملم أنفاسها في بقعة أخرى.. وتتبعثر.

وفي حين قررت زوديتو أن تتشبث بالوقت، اختار معظم الجيران أن يعبروا الحرب إلى السودان، قلة كنا منهم خالفت السائد وقصدت وجهة أخرى/ أخيرة، لم تكن سوى جدة.

«لو سمحت.. لم يبق غيرك»

بدت المضيفة وقد بذلت جهداً كي تخفي غيظها خلف ابتسامة باردة وهي تطلب مني المغادرة.

ارتديت معطفي وتوجهت صوب المخرج. غمرني شعور بالارتياح؛ فقد كانت السماء تمطر.

شعرت أن أسمرا تحسن وفادتي. المطر هو أكثر ما أحتاجه الآن ليغسلني بين زمنين، ينسيني الأول ويهيؤني للثاني.

سيماء الغرباء فاضحة، فقد خابت محاولتي ارتداء ملامح تليق بهذا العمر الجديد.

حمل سائق التاكسي أمتعتي، بينما لا أزال مستغرقاً في تفاصيل الوجوه والأمكنة.

«أنا تيدروس.. هل تريد فندقاً بعينه أم أختار لك واحداً؟»

«لماذا تظن أنني بحاجة لفندق؟ ألا يوجد احتمال أنني أملك بيتاً مثلاً؟»

«أنا آسف يا سيدي، ظننتك هنا للمرة الأولى.. أكرر أسفي، أين يقع منزلك؟»

«إمباسيرا هوتيل»

ينفجر ضاحكاً:

«كدتَ يا سيدي تفقدني ثقتي في نفسي، فأنا قارئ جيد للوجوه».

أنا الريح.. .

تأخذني الاتجاهاتُ

إلى غيرها

كي أردّ احتمالَ المنافي

إلى الأمكنة.

م. الشيخ

«أنت تتحمل تأخر انتباهي»

يضحك أحمد كلما سمع عبارتي المجتزأة هذه، يرجوني ألا أبالغ، فلا يمنعني ذلك من إتمامها:

«لأنك تأخرت في الدخول لحياتي».

عقود الانتظار راكمت أجيالاً دنا سقفها حتى كاد يطبق عليها. عبثاً تحطمت أعمدة شيدها من قبلهم بما تبقى من حنين ونزعة للتمايز.

ولم أكن استثناء.

في السعودية لم أعش سعودياً خالصاً، ولا إرترياً خالصاً. كنت شيئاً بينهما. شيء يملك نصف انتماء، ونصف حنين، ونصف وطنية.. ونصف انتباه.

أنصاف لم يكن بمقدورها أن تنمو لتكتمل، ولم يتح لها أن تجد ما يماثلها انتماء وحنيناً ووطنية وانتباها.

وحده الانتباه كان بمقدوره أن يجبر عوز أشيائي، عرفتُ هذا متأخراً، فقط حين جاء أحمد.

ثلاثون عاماً كي أنتبه أني كمن يعيش بنصف قلب ونصف رئة ونصف عقل، هذا الأخير الذي بدأ في تعذيبي، وكأنه في بحثه عن الاكتمال يتمدد في أحشائي طعناً وتمزيقاً.

لم أكن إرترياً خالصاً لأن القلب اختلط بقلب، فلم يعد مجدياً معرفة أين يبدأ الأول وأين ينتهي الآخر.

ولم أكن إرترياً خالصاً لأن العمر كان يتمدد إلى الأمام بينما كدنا ننسى كيف نلتفت خلفنا.

ولم أكن إرترياً خالصاً لأني كنت مشغولاً جداً بالأهلي، وعبادي، والحلقة الأخيرة من ليلة هروب

«نجوى.. نجوى..»

في المقابل، ويا للأسى، لم أعش سعودياً خالصاً.

لم تكن العقود الثلاثة كافية في ما يبدو.

لم تكن كافية صرختي الأولى، ولا كل العثرات التي انتهت وقوفاً.

لم تكن تكفي الأبجدية تتسلل إلى فمي حرفاً حرفاً مع كل صوت يطرق مسامعي.

لم يكن كافياً غبار الحارة، ولا شغب الصبا، ولا «ياواد» و«اشْبَك» و«رَوِقْنَا». لم يكن كافياً شغل «الزناوة» و«الدقدقة»، ولا كل العجين الذي نصنع منه خبزنا اليومي في جدة.

جدة..

وقعتُ في غرامها وحدها، ولم أستطع.. أو ربما لم أشأ أن أتشظى وجدانياً في هذه المساحة الهائلة: المملكة.

كانت جدة مملكة قائمة بذاتها تلائم أنصاف المحرومين مثلي، فبمقدور هذه العجوز، كما تفعل دائماً، أن تمنحني لبعض الوقت شعوراً ولو مزيفاً بالاكتمال.

حتى جدة لم تكن كلها ملكي، وحده النزلة يرسم حدود سطوتي وعشقي وكبريائي وانكساري.

تراب الحي قديم، يحتفظ بغبار العابرين الأوائل، يمنحهم أسماء وملامح وعشقاً دون أن يصفعهم بالنسيان.

في النزلة: الإذاعة والصخرة وشاهر والبدو والنزلتين والعسارية، تحكي كلها رهق مشاوير الظهيرة، وغزوات استرداد الكرامة

«والكاس يرجع دولابو. . والكاس. . »

النزلة إرتري الهوى، وكأنه نسخة مصغرة من ذاك الغائب، تزدحم شوارعه بالآباء الطاعنين في الغربة، يلوذون ببعضهم عقب كل صلاة، وكأنهم في صلاة أخرى. . وهذه المرة كي لا ينسوا.

في المقابل كان الأبناء سعوديين إلا قليلاً، فلم تكن الغربة لتعكر يومياتهم العامرة «بالشقاوة»، رغم تعرضهم للفحات من ريح الوطن حيناً بعد آخر.

في النزلة يسكن أحمد، يكبرني ببضعة أعوام. . وعقود من التجربة، جمعتنا كثير من الملامح، وأخرى كان يمكن لها أن تفرقنا لولا أنه كان مقنعاً جداً، وكنت مسالماً جداً.

دعاني ذات يوم إلى القنصلية الإرترية في شارع الستين الذي يشق جدة من جنوبها إلى الشمال:

«الخميس في حفلة في السفارة تجي؟»

«أي سفارة؟»

«الإرترية طبعاً. . »

«في الرياض؟»

«يا راجل ايش يودينا الرياض. . هنا في جدة»

«هذه مو سفارة»

«عارف إن السفارة في الرياض والقنصلية في جدة. . بس كل الناس تسميها سفارة. . ها. . تجي؟»

«طيب ايش ح يكون في؟»

«رقص. . وارتري. . عشان لا يجي في بالك انه خبيتي مثلا. . وكمان ح يكون في بنات».

لم يدخلني أحمد دائرة الانتباه للوطن الغائب وحسب، بل مع الوقت قرّبني من وطن آخر. كان على الدوام يقوم بما أتمناه سراً، ويصرخ بما يظل حبيس الهمس عندي. . خصوصاً حين يتعلق الأمر بالنساء.

يا وارد الماء علَّ المطايا

وصبّ لنا وطنًا في عيون الصبايا

فما زال في الغيب منتجع للشقاء

وفي الريح من تعب الراحلين بقايا

م. الثبيتي

فتحتُ حقيبتي على عجل واخترت قميصاً عوض الذي بلله المطر. اتصلت بخدمة الغرف لأعرف إن كان بمقدورهم توفير مظلة لي. . دقائق وكنت خارج الفندق.

«إمباسيرا» أحد أقدم فنادق أسمرا، نصحني به صديق دائم التردد على المدينة. طابقان وحديقة واسعة على أحد الشوارع الخلفية لكمشتاتو، ورغم بساطته إلا أنه لا يخلو من أناقة مثل معظم المباني المشيدة أثناء الوجود الإيطالي.

بمحاذاة الفندق سرت في مرسى فاطمة باتجاه الشارع الكبير، مررت بفندق حماسين، ثم السفارة المصرية التي كانت ساكنة إلا من حارسها العجوز يسلّي نفسه بقطة يطعمها.

البنايات فلل من طابق أو طابقين على الأكثر، ولا يكاد يخلو بيت من حديقة ولو بشكل مصغر. كان أخّاذاً منظر الورود المتدلية بغنج والحبلى بقطرات المطر تعاود السقوط مع احتكاك المارة بها.

مع بلوغي النقطة التي تصل مرسى فاطمة بكمشتاتو كان المطر قد

خف. كنت كمن يقف في منطقة عازلة بين عالمين، عالم يسكنه الهدوء وآخر يضج بالحياة، فكمشتاتو الذي طالما سمعت عنه كان شارعاً مزدوجاً بطول كيلومترين تقريباً، ومرصوفاً بالكامل بأشجار النخيل.

طويت مظلتي واتجهت غرباً. كان مغرياً منظر الحشود تمتر الشارع في الاتجاهيين، وهي عادة سمعت أن الإرتريين ورثوها من المستعمر الإيطالي الذي كان يمنعهم ارتياد كمشتاتو ويحتكر متعة التجوال فيه.

لا أدري إن كان الناس حافظوا على ذلك من باب الاعتياد أم أنهم ينتقمون من كل لحظة حرمان؟، سؤال تعلق بذهني وأنا أغوص وسط العشرات الذين تتقاطع أحاديثهم وضحكاتهم دون أن يتحول ذلك إلى ضوضاء منفّرة، وكأنهم في كمشتاتو يملكون مقياساً يجعلهم - ومهما فعلوا - دون مستوى الإزعاج والضجيج.

كمشتاتو يتحدث الإيطالية في كل تفاصيله، فمن سينما روما إلى بار رويال ونابولي، مطاعم ومقاهٍ تقدم البيتزا والكابتشينو، حتى أن الإرتريين عادة ما يفاخرون بأنهم يملكون ثاني أفضل بيتزا وكابتشينو في العالم.

سرتُ قليلاً حتى أصبحتُ في مواجهة كاتدرائية القديس جوزيف. بقدر ما قرأت عنها لم أتخيلها بهذه العظمة. نقلني المشهد من شرق إفريقيا إلى قلب أوروبا.

«. . بل إن الإيطاليين حين شيدوها قبل مئة عام أرادوا من خلال ذلك تطبيق ما لم يستطيعوه معمارياً في روما. لذا جاء فن الآرت ديكو في ذلك الوقت صرخة ثائرة على السائد في فنون

العمارة، وكانت هذه الكاتدرائية تحديداً هي ساحته الأبرز قبل أن ينتشر في كافة أرجاء أسمرا

كان واضحاً أن هذا الفن كما يظهر في كاتدرائية القديس جوزيف يعتمد على ترف التفاصيل الموحية بالأناقة، عبر استخدام الخطوط المتكسرة والمنحنيات الهندسية ذات الطابع الاحتفالي، وهذا يجعل الزائر لا يمل التأمل في تفاصيلها الكثيرة المتشعبة».

قرأت هذا الكلام مراراً في ويكيبيديا ولم أفهمه إلا هذه اللحظة.

تتناثر جموع على عتبات الكاتدرائية الواسعة، بعضهم يستريح، والبقية جذبهم إغراء الإطلال على المارة من عل.

لمحتُ الباب مفتوحاً، بل ورأيت مجموعة تعبره وملامحهم تشي بأنهم سواح. فكرت باللحاق بهم لكني ترددت فلم يسبق لي دخول كنيسة. حين رأيت آخرين يدخلون حسمت أمري واجتزت العتبات سريعاً حتى أصبحت مقابل الباب الخشبي الكبير.

هنا عاد لي ترددي وكأنني على وشك القفز من مكان بالغ الارتفاع. استرقت النظر من مكاني، رأيت مقاعد خشبية تملأ قاعةً دائرية كبيرة، وهو الشكل نفسه الذي اعتدت رؤيته في الأفلام، مقاعد واسعة ومتجاورة خلف بعضها بشكل منتظم مع مساحة مستطيلة فارغة في منتصف القاعة، تفصل بين مجموعتين من المقاعد. كان السواح يلتقطون صوراً للسقف الذي احتجب خلف الباب الكبير.

تقدمتُ خطوات حتى أصبحت داخل الكاتدرائية، لم يهتم لدخولي أحد فخفّف ذلك من ارتباكي.

أول ما فعلته كان النظر إلى الأعلى، لم يكن جمال الكاتدرائية الخارجي ليضاهي داخلها، تناثرت على الجدران الداخلية رسومات

بديعة، رأيت صورة كبيرة لمريم العذراء وبين يديها عيسى رضيعاً، رأيت صوراً أخرى لم أعرف أصحابها.

كانت الصور تتعاقب في السقف بشكل دائري متناسق، فكنت مضطراً للدوران في مكاني كي أتنقل ببصري بينها، ودون أن أنتبه دست على قدم سيدة صمّت أذني بصرختها، التفتُّ إليها مذعوراً فوجدتها إحدى الراهبات، ارتبكت، لم أستطع حتى أن أعتذر، وما بين حرج إيلام السيدة وكونها راهبة ضاع الكلام ووجدتني أغادر المكان مسرعاً وكل من في الكاتدرائية تقريباً ينظر إلي ضاحكاً..

اجتزت الدرج نزولاً دون أن ألتفت، فكرت في الرجوع إلى الفندق مكتفياً بحرج تجربة اليوم الأول، لكني عدلت

«لا يصح أن أقطع متعة الاكتشاف من الموقف الأول».. هكذا حدثت نفسي، أو هكذا تحايلت عليها.

واصلتُ سيري غرباً حتى بلغت مقهى بواجهتين تطل إحداها على كمشتاتو، والأخرى على شارع أقل صخباً، إنه مودرنا.

شدني موقعه الذي يتوسط الشارع تقريباً، إضافة إلى أنه يضج بالحياة كما يبدو من تنوع وجوه مرتاديه.

اقتربت باحثاً عن مكان، بينما أعين الجالسين تتجه نحوي. ورغم أن معظم الكراسي تتحلق حول الطاولات بشكل دائري، فإن أكثر الزبائن كانوا يجلسون بشكل يجعلهم في مقابلة المارة والقادمين الجدد.

كان مودرنا أشبه بمسرح مكتظ بينما ساحة العرض هي وجوه المارة في كُمشتاتو، تلك الوجوه المتخمة بالتفاصيل.

اقتربت أكثر، بدا لي أن لا مكان شاغر، كدت أتراجع باحثاً عن مقهى آخر، لولا أن إحدى النادلات تقدمت نحوي وهي تشير إلى كرسي فارغ. لم أستوعب إشارتها في البدء فقد كان الكرسي هو الوحيد الخالي ضمن أربعة تحيط بإحدى الطاولات.

في ما بعد عرفت أن الإرتريين لا يجدون حرجاً في تشارك الطاولات مع أشخاص لا يعرفونهم.

جلستُ، إلى يميني رجل في أواخر الخمسين وبيده صحيفة «إرتريا الحديثة»، إلى جواره امرأة يبدو أنها زوجته فقد كانت تتحدث إليه دون أن يجعله ذلك يترك الصحيفة ويلتفت إليها، كان يكتفي ببضع كلمات مقتضبة وسط سيل هادر من حديث السيدة، كان الحوار بالتغْرنْيَّة لذا لم أفهمه.

الكرسي الثالث تجلس عليه فتاة في منتصف العشرين تقريباً وبيدها كتاب، بينما ضاعت بعض ملامحها خلف خصلات شعرها المنسدلة، ملابسها وتسريحة شعرها يقولان إنها زائرة.. مثلي.

جاءتني النادلة من جديد، انتبهتُ أنها ذات ابتسامة ساحرة وقوام ممشوق، حدثتني بالتغرنية، خمّنتُ أنها تسألني إذا كنت أريد تناول شيء، قلت بالإنجليزية إنني أتحدث التغري. ردت على الفور:

«سَنّي ما سيام»

«سَنّي ماسيام.. شكراً»

«هل تريد تناول شيء؟»

«كابتشينو برغوة أكثر»

كنت أتحدث مع النادلة بنصف اهتمام بينما تركيزي مع الفتاة الجالسة جواري. تعمدت لفت انتباهها، كنت في الحقيقة أخبرها أنني

زائر مثلها، لعلها تقرر إنهاء شعوري بالوحدة على هذه الطاولة المزدحمة.

رفعتْ رأسها قليلاً والتفتت إلي، ثم عادت لكتابها من جديد، كان ذلك كافياً كي ألمح العنوان، يا للصدفة، «رحلة الشتاء/ صالح»، رواية ناود، للتو انتهيت منها. طعمها في فمي، وأحداثها طازجة في رأسي.

مع هذا كنت محتاجاً للفت انتباهها أكثر. لم يكن من المناسب المبادرة بالحديث دون مقدمات. استغليت عودة النادلة بطلبي

«عفواً لم أعرف اسمك؟»

«سلام»

«سلام.. الله.. اسم جميل يليق بهذه الملامح الفاتنة، لا أعرف ربما تضيعين وقتك هنا، ألا يجدر بحسناء مثلك أن تكون عارضة أزياء مثلاً أو نجمة إعلانات على أقل تقدير؟!»

«شكراً.. أشعرتني بالخجل يا سيدي»

هنا طوت الفتاة كتابها بعصبية والتفتت إلينا دون أن تقول شيئاً. شعرت حينها أن كل شيء بات جاهزاً لعرض بضاعتي.

يوماً أخبرني أحمد أن الغيرة مفتاح لقلوب كل النساء، كل النساء بلا استثناء، وها هي الغيرة وحدها تثير فضول هذه الفتاة التي بدت آسرة حين اكتملت ملامحها أمامي، فزادت رغبتي في إزالة ما تبقى من الغربة التي تفصل بيننا.

«عفواً.. هل هذه رواية رحلة الشتاء للعظيم ناود؟ أنت محظوظة بكم المتعة التي تنتظرك بين دفتيها»

«آه. نعم. هل قرأتها؟»

«بالطبع، لكن قبل هذا أنا عمر، إرتري مقيم في جدة»

«أهلاً تشرفنا. . أنا سمراويت، إرترية مقيمة في باريس»

لا أعرف لماذا كان وقع اسمها ساحراً، وقد زادته سحراً طريقة نطقها له بلبنانية رشيقة.

اكتشفت أنني أمام أنثى ذات حضور طاغٍ وهي لمّا تنتهِ من جملتها الأولى بعد؟

بضع كلمات نطقتْ بها كانت كافية للسياحة في تفاصيل وجهها الذي بدأتُ أشعر أنه يعنيني بشدة. سمراويت تملك وجهاً بهياً ذو سمرة فاتحة، وكأنه سليل عرقين غاية في التضاد، فجاءت ملامحه مزيجاً من جمال هذا وبهاء ذاك.

عاد بي وجهها من جديد إلى طراز الآرت ديكو.

حتى الأشياء الجامدة لابد وأنّ أصحابها استوحوها من وجوه كهذه مليئة بالتفاصيل الأخاذة، لابد وأن يكون من صمم أسمرا قد التقى ملامح سمراويت في مكان وزمان آخرين، لابد وأنه وقع تحت سطوة جمالها اللافت كي يبدع هذه الطرز المعمارية الفريدة.

«كيف وجدتَ الرواية؟»

الرواية؟ أي رواية تبقت بعد ما رأيتك؟ دليني على رواية ستطاول هذا البهاء الذي يستقر أمامي. ثم إن الروايات عالم من المتخيل الجميل بينما أنت واقع فاق جماله قدرتي على التخيل.

«أستاذ عمر؟»

«نعم. . رحلة الشتاء هي قصيدة أكثر منها رواية، أبدعها ناود، وكأنه أراد أن يثبت أن العربية في إرتريا لا تقل جمالاً وحضوراً عن

باقي البلاد الناطقة بها، وأنه أكثر من مجرد كاتب من الأطراف، بالكاد ينال ثناء بعضهم في المركز، بينما نصيبه تجاهل الأغلبية المتعالية.

انطلق ناود من الإنسان، من قريته، وطاف بين صفحات الوطن بانكساراته وانتصاراته. سار بنا من أغلال الاحتلال الإثيوبي حتى لحظة الانعتاق. ثم إني منحاز لهذه الرواية لسبب آخر، فحين انتهيت منها كنت أتساءل إن كان كل ما فعله ناود أنه كتبني باسم آخر»

«جميل. . أنا أيضاً أحببت الرواية رغم أني لم أنته منها، وأصبحت متيمة بصالح»

آخ. . قولي عمر. . تعمدت التقاطع مع بطل الرواية لقناعتي أنك ستعجبين به لا محالة، فناود لم يترك لقارئه إلا الإعجاب بصالح المعجون بالعشق، شفيف الروح، المخلوق من رحم المعاناة وقد تركت أثرها فيه عميقاً.

هذه الشخصية تستهوي النساء، والحالمات منهن على وجه الخصوص، وسمراويت من هذا النوع حتماً.

من جديد أشعر أن صديقي الجداوي يشاركنا هذا اللقاء، فدائماً ما كان يردد أن نصف النساء يعشقن الرجل الحالم، بينما النصف الآخر يقدرنه وإن لم يعلن ذلك صراحة.

لذا لم أكن لأخرج خاسراً من محاولتي هذه، وها هي في ما يبدو بدأت تعطي ثماراً سريعة توجب التقدم قليلاً.

«إن سمحتِ لي أن أبتعد قليلاً عن رحلة الشتاء. . تعيشين في باريس لكنك تتقنين العربية بل أكثر من هذا أجدك تهتمين بآدابها. . هل تشرحين لي لطفاً كيف حدث هذا؟»

«صحيح أنا أعيش في باريس، لكني نشأت في بيت يتنفس العربية، فأبي هو الروائي الإرتري أبراهام ولدا ماريام وأمي هي الشاعرة اللبنانية كاتيا حداد، لكن يبدو أن جينات الأدب لم تنتقل إلي، فأنا للأسف لست روائية ولا شاعرة.. أنا فقط سمراويت»

فقط سمراويت !.. ومن قال إن هذا لا يكفي ويفيض؟

تأسفين على فوات الشِّعر وأنت القصيدة ينتظرها كل شاعر، يفني عمره في مطاولتها ولا يطولها. لا تأسفي يا سيدة البهاء، واتركي ذلك للشعراء والروائيين الذين لو اصطفت أعمالهم أمامي، لما فعلت فيّ ما تفعله عيناك الآن.

«ليس مهماً يا سيدتي أن نكون كلنا شعراء وروائيين.. المهم أن نتلمس الجمال أياً كان شكله وصورته»

كادت ترد لولا أن هاتفها النقال عليه لعنة الله أفسد ذلك.. كنت على وشك الانتقال لمرحلة أكثر تقدماً.. وددت القول كم هي جميلة.. وآسرة.

«هذه أمي. آسفة مضطرة للمغادرة الآن.. أتمنى أن يتاح لنا إكمال حديثنا الممتع. سأكون في أسمرا لشهرين تقريباً ومن المؤكد أني سألتقيك إذا كنت لا تزال هنا.. بخاطرك»

شهران؟ يا لأقدار الله التي جاءت بي في هذا الوقت بالذات، ويا لأقداره التي جعلتني أقرأ صالح، سأقبّل رأسك يا ناود لأنك دون أن تدري كنت قنطرتي إلى هذا العالم الجميل: سمراويت.

لعلّ اللقاء يكون بُعيْدَ اللقاء

أسيُجُك الآن بالانتماء

تعالي، فلا غيرَ لي غيرُ غيرِكِ

م. الشيخ

في الثامنة كان أحمد ينتظرني عند مدخل البيت. نصف ساعة تقريباً كانت المدة التي استغرقها الطريق من النزلة إلى الستين.

«يلا قوام.. يدوب نلاقي مكان»

«يا عمي صبرك الدنيا ما حطير.. قلي الآن ايش راح يصير؟»

«تاني؟»

«خلاص خلاص.. أمرنا لله»

هي المرة الأولى التي أقصد فيها القنصلية لغير دواعي تجديد الجواز، ولولا إلحاح أحمد لما وجدت سبباً آخراً.

دخلنا قاعة ملاصقة للقنصلية تسمى الجالية. فوجئت بالحشد يملأ جنباتها. لم أكن أتخيل هذا العدد الكبير في انتظاري، بل لم أكن أعرف أن جدة تحتضن هذا الكم من الإرتريين.

لم تكن الحفلة قد بدأت، بينما أمواج الشباب والصبيات الأنيقات يجبن المكان بأزياء تقليدية، والفرقة الموسيقية على المسرح الخشبي تجري آخر استعداداتها.

اختار أحمد موقعاً يشرف على ساحة تقابل المسرح

«من هنا ما ح يفوتنا شيء»

عرفت أن الساحة الخالية من المقاعد والمواجهة للمسرح مخصصة للرقص، ولاحظت أن معظم الجالسين على المقاعد هم كبار السن بينما امتلأت منطقتنا والأماكن المماثلة بالشباب من الجنسين، والذين فضلوا البقاء واقفين قرب ساحة الرقص على الجلوس بعيداً عنها.

كنا محاطين بفتيات تتعالى ضحكاتهن بشكل لافت، نظرت إليهن ثم إلى أحمد فرأيت ابتسامة ماكرةً تغطي وجهه

«كده انت محتاج تشكرني على هذا الجو»

تناهت إلى مسامعي أنغام متقطعة تعزفها الفرقة في ما يشبه الإحماء.. شعرت أني أعرف هذه الموسيقى، بل أنا متأكد أني سمعتها من قبل، فرحت لأن ذلك منحني إحساساً بأني لست غريباً على هذه الأجواء.

«أنا أعرف هذه الأغنية.. بس ناسي اسم الفنان»

كنت فرحاً بهذا الاكتشاف لدرجة أني رفعت صوتي وكأن حديثي لم يكن موجهاً إلى أحمد فقط.

لم أنهِ جملتي تلك، حتى انفجر مَنْ حولي ضاحكين بطريقة هستيرية، بعضهم يشير إلي وآخرون يعيدون كلامي لمن فاته. سحبني أحمد من يدي بطريقة متوترة إلى جهة أخرى من القاعة:

«فضحتنا الله يفضحك.. هذا النشيد الوطني»

لا يهم.

هكذا كنت أقنع نفسي وأنا على سريري أسترجع ليلة مليئة مبهرة، فالموقف المحرج الذي استمر أحمد يلومني عليه حتى غادرنا، لا يعني أن كل شيء كان سيئاً.

لا تزال الصور الملونة تمر بذهني، أتذكر كيف بدأ الحفل بالنشيد الوطني، لكن هذه المرة دون حماقة أخرى، تلته بضع كلمات مملة لمسؤولين في القنصلية، قبل أن تشتعل القاعة بالموسيقى والأجساد المتمايلة في حركات بدت متناسقة رغم حالة العفوية التي صبغت الرقص.

أحمد إلى جانبي يقوم بما يشبه الترجمة الفورية لما أراه.

«هذه أغنية تغرنية. . راح تشوف رقص خطير»

ما إن انطلقت الموسيقى حتى بدأ الناس في التقاطر على الساحة التي امتلأت خلال ثوان. شكّل الراقصون دائرة كبيرة تتحرك عكس عقارب الساعة وبداخلها مجموعات متفاوتة العدد، بعضها يصل إلى أربعة، وأخرى شكّلها شخصان فقط.

كان الرقص يعتمد على هز الأكتاف بطريقة بدت سهلة، وأجمل ما فيه أن الراقصين بدوا في قمة سعادتهم وهم يتبادلون أماكنهم وفقاً لإيقاع الموسيقى.

«هذه تغري. . لازم ترقص»

«لا لا. . روح انت. . انتظرك هنا»

«يا ابني تعال. . بس اعمل مثلي»

لم ينتظر أحمد ردي فقد كان يتحدث وهو يسحبني، وما إن انتهى من جملته هذه حتى وجدتُ نفسي وسط القاعة.

كنت مرتبكاً جداً، شعرت أن كل الحاضرين ينظرون إليَّ فقط، لم أستطع تحريك قدميّ من شدة الحرج، وكالعادة تصبب عرقي حتى غطى وجهي، حمدت الله أن الراقصين من حولي كانوا يتعرقون بالقدر نفسه تقريباً وإن لسبب مختلف.

أحمد كان بارعاً جداً في الرقص وكان صعباً عليّ مجاراته، حاولت تقليده دون جدوى، أدركت مدى صعوبة تحريك الأكتاف بالكيفية التي يقوم بها وبقية الراقصين، وددت لو أنني أتركه وأنسل إلى مكاني متفرجاً، وددت على أقل تقدير أن أجد من هم على شاكلتي فلا أبدو نشازاً وسط هذا الموج الهادر.

لاحظت اختلافاً بعض الشيء في رقصة التغري عن سابقتها، بدا لي أن حركاتها أكثر انسياباً وانسجاماً مع الإيقاع، لكن دون أن يجعلني ذلك قادراً على إتقانها.

طريقة أحمد في الرقص جذبت إلينا عدداً من الفتيات، فقد كان يرقص بانتشاء لافت، يحرك يديه عالياً فيصنع اختلافاً طفيفاً عما يقوم به البقية، ثم يستدير برشاقة قبل أن ينحني نصف انحناءة وكأنه يلتقط شيئاً من الأرض.

بدأ عدد الفتيات يزداد حولنا حتى صنعن طوقاً أحاط بنا بالكامل. كنَّ يصفقن ويصرخن إعجاباً بما يقوم به أحمد، بينما تزداد نقمتي عليه لأنه دون أن يقصد وضعني في بقعة ضوء حارقة. كنت أتحاشى النظر إليهن، لكن ذلك لم يكن كافياً، إذ تحول أحمد لمركز دائرة كبيرة معظمها من النساء، وأنا عالق وسط هذا المشهد لا أستطيع الفكاك.

«الله يخرب بيتك ورطتني»

لا يكف أحمد عن رقصه المجنون، بل أصبح يزداد جنوناً كلما زاد عدد المعجبات، أما أنا فكانت كل فتاة تنضم للدائرة الكبيرة تضيف إليّ عبئاً يكاد يقتلني.

اقتربت فتاة من أحمد فراقصها وسط صيحات الأخريات، هنا ازداد الأمر سوءاً، فقد انكشفتُ أكثر ولم يعد يصلح التظاهر بتشكيل

ثنائي مع هذا الوغد، بتُّ وحيداً وسط طوق كبير أمارس بضع حركات بلهاء لا تعني شيئاً.

لا أعرف لماذا كلما لعنتُ موقفاً يأتيني ما هو أسوأ؟.

من بعيد رأيت فتاة تتجه نحوي وكأنها تعرفني منذ كنا أطفالاً، مدّتْ إليّ يدها ودون أن تقول شيئاً بدأت تراقصني.

«الله يلعنك يا أحمد»

دخلتْ فتاة أحمد والتي معي في ما يشبه التحدي، كل واحدة تريد إثبات أنها الأفضل، وأنا لا أريد شيئاً بقدر الفرار ليس فقط من الجالية بل من جدة بأسرها.

«الله يلعنك يا أحمد»

اهتديت أخيراً إلى حيلة بدت مقنعة بعض الشيء، فقد تظاهرت بمن توقف عن الرقص إعجاباً برقص الفتاتين وبدأتُ في التصفيق لهما. هنا بدأ الشعور بالارتياح يزورني للمرة الأولى منذ بداية الورطة.

انتهت الأغنية وجاء الفرج. عاد الجميع إلى أماكنهم مع صرخات الحاضرين، شعرت أنني قضيت دهراً في حالة الحرج تلك، بينما كان أحمد لا يزال في حالة ابتهاج طاغية، والعرق بلل قميصه بالكامل.

«ها.. كيف؟»

«الله يخرب بيتك.. حرام عليك ورطتني.. كان شكلي بايخ»

«لا بايخ ولا شيء.. الرقصة الجاية راح تكون أحسن»

«هي لسه فيها مرة ثانية؟».

هاتِهَا كالشَّمسِ تمتاح انتظارِي
وتذيبُ الوجدَ في عُمقِ اغترابِي

م. الثبيتي

لا أعرف كم من الوقت قضيت في مودرنا بعد مغادرة سمراويت، ولا أكواب الكابتشينو التي شربتها وأنا أطالع وجوه العابرين أمامي.

أحببت فكرة الاتكاء في مواجهة كمشتاتو، كنت كمن يتكئ على حائط التاريخ ليغوص بعينيه في عمقه الهادر أمامه.

كنت أتأمل وجوه الناس.. أتفحصها، أحطُّ عليها كطائر مهاجر فرّ من صقيع أيامه إلى هذه الملامح.

وجوه الإرتريين دافئة، فهي خليط من معاناة ممتدة حفرت عميقاً، وإباء خلّفه بحث مضن عن الوطن طيلة عقود.

يمرون أمامي خفافاً إلا من ابتسامات القانعين تضمد نهاراتهم المتشابهة. وحدها البسمة تجعل أرواحهم أقل خواء من جيوبهم.

يمر شيخ كبير يستند إلى عصاه، أو بالأحرى تستند إليه، لا يكاد يضعها حتى يرفعها من جديد ليحيّ بها شخصاً يعرفه. لا بد وأنه يعود آخر اليوم وقد امتلأ بالذين سيفتقدونه حين تظل العصا وحيدة.

تمر فتاة أتعبها الوقوف أمام المرآة، تُنَقّل نظراتها الحائرة بين العيون لعلها تقع على المستقبل. أبتسم لها فترتبك. توشك أن تقف، لكنها تتذكر كبرياء غائراً، فتواصل سيرها دون أن تمنحني/ تمنحها فرصة ثانية.

يمر عدد من الصبية، أنستهم لعبة يتيمة ملابسهم الرثة، وأقدامهم المتشققة، مشغولون بالبهجة تشع كلما حان دور أحدهم.

يمر شاب، يطيل النظر في ساعتي وهاتفي النقال، وقبل انشغالي بغيره يعود مطوقاً فتاته، ونظراته تحكي تفوق الأشياء الأغلى.

ليس بعيداً عن مكاني لمحت نساءً يلتحفن الفقر دون أن تسيل وجوههن. كل ما تقوم به إحداهن حين يطويها العوز هو الاتكاء على نخلة صابرة ومعها طاولة صغيرة تتناثر عليها المناديل الورقية والسجائر وربما الفول السوداني، تقضي الوقت في محاولة بيعها للمارة.

لماذا كل هذا العناء؟ لماذا تتكئ المرأة هنا على وجعها فقط، فلا تعود تشبه المعدمين حول العالم؟

أخرجتني مئذنة من تأملي هذا حين انطلق النداء.

كان الصوت عالياً كالذي اعتدته في جدة. فوجئت بالأمر، فما أعرفه أن الحكومة تفاخر بعلمانيتها. نهض عدد من الجالسين وأحدهم يطلب من صاحبه أن ينتظره ريثما يعود. قررت اللحاق بهم.

يتربع الجامع على هضبة مرتفعة قليلاً خلف كمشتاتو. أمامه تمتد حديقة تتدرج حتى تصل إلى مستوى الشارع.

التصميم منح الجامع هيبة ووقار، فهو يبدو أكبر من حجمه الطبيعي، كما أن الوصول إليه يتطلب صعوداً وارتقاء، وهي معان لا يبدو أنها جاءت مصادفة حين قرر الأتراك/ حكام إرتريا حينها، بناء الجامع.

على الواجهة ذات القبة الخضراء الأنيقة كُتب الاسم والتاريخ: جامع الخلفاء الراشدين، 1900م.

من جديد كان الحضور التركي طاغياً، فالباحة تزينها النقوش

والقناديل المعلقة تحاكي بجمالها تلك الموجودة في السقف العثماني من المسجد النبوي.

أقيمت الصلاة بصفوف ممتلئة. انسابت تلاوة بعربية متقنة ومسحة إفريقية تشتهر بها الدول التي تقرأ برواية ورش. ظللتنا الأحرف شجناً وعذوبة.

كنت أستمع إلى الآيات وكأنها المرة الأولى. شيء مختلف عما اعتدته في الصلوات السريعة العابرة.

يقرأ الإمام.. يتأمل ويخاطبني، يشدني حين ينطق بالآيات، ويشدني أكثر حين يصمت قليلاً. كلحظة مختلفة شعرت أن الصلاة ملأتني طمأنينة.

انقضت الصلاة ولم ينقض تفكيري في صلاة البسطاء هذه.

كيف يقتربون من السماء إلى هذا الحد؟.. كيف تستطيع صلاة واحدة أن تزيل صدأ الروح، بحيث يعود الواحد أنقى في كل مرة؟

تذكرت جدتي وهي تصر أن إسلام إرتريا أجمل، كنا نناكفها فتعجز عن مجاراتنا دون أن تغير رأيها.

الآن ربما لم تعد جدتي بحاجة لدليل، فالدين هنا يحتفظ بنكهته الكاملة رغم وجوده القديم.

خرجت من الجامع مبللاً بالخجل بعد أن دخلته سائحاً قادماً من «البقاع الطاهرة».

لا يعمل هاتفي السعودي هنا. اكتشاف متأخر!.

أسرعت نحو ايرتل. لم يكن المكان مزدحماً. جاء دوري فالتفتْ

إلى إحدى الموظفات وأومأت. طرحت بين يديها جواز سفري وبطاقتي الإرترية وطلبتُ شريحة جديدة.

«عفواً هل أنت زائر أم مقيم؟»

«زائر يا سيدتي.. هل يبدو علي أنني هنا للمرة الأولى؟».. كدت أخبرها أنني بدأت أشك أن إرتريا بأسرها تستطيع قراءة ملامحي.

«أنا آسفة يا سيدي لا يمكنك استخراج شريحة، هي حصر على المقيمين هنا»

«لكني بحاجة ماسة لها.. ما الحل إذا كانت شريحتي الدولية لا تعمل ولا أستطيع استخراج أخرى؟ هل يجب استخراجها باسم أحد المقيمين مثلاً؟»

«حتى هذا يبدو صعباً فالقوانين تسمح لكل مقيم بشريحة واحدة.. ربما أنت بحاجة لشخص لا يملك شريحة أصلاً، لكن أرجوك لا تقل إنني أخبرتك»

خرجت من شركة الاتصالات وأنا في ذهول ونقمة، أي درجة من العزلة هذه؟.

عدت إلى الفندق بروح غير التي خرجت بها.

صعدت إلى غرفتي وأجريت عدداً من المكالمات بمن أحمل لهم أمانات ورسائل. معظمهم يعيش في مدن أخرى ككرن وأغوردات، ولم يكن سهلاً مجيئهم إلا آخر الأسبوع. وحده سعيد كان يسكن أسمرا فاتفقنا أن نلتقي ظهيرة اليوم التالي في كمشتاتو.

سعيد هو ابن جارتنا في جدة، قدِمت عائلته في الثمانينيات بعد أعوام من العيش في السودان. حين قررت العائلة الهرب رفض سعيد

الخروج معهم، فأجبره الأب لكنه تمكن من مغافلتهم في منتصف الطريق وعاد إلى ساحة القتال.

كنت متشوقاً إلى رؤية هذا الرجل الذي لا تمل أمه الحديث عنه وعن نضاله في صفوف الثوار، كنت أرى فيه فرصة نادرة لفهم هذا الشغف بوطن لم تكن كل الظروف المحيطة تشي بإمكانية ولادته، وكيف لشاب في مقتبل الوعي أن يكون مؤمناً بهذا الوطن/ الخيال إلى هذا الحد من العمق والتصميم.

عرفتُ أنه فقد ذراعه في إحدى معارك التحرير الأخيرة وأنه نتيجة لذلك لم يعد جزءاً من أي نشاط عسكري، مكتفياً بالسعي وراء رزقه عبر دكان صغير لبيع العسل. لم يخفف ذلك من رغبتي، إذ يكفي مثلاً أن يحكي كيف استطاع هو ورفاقه أن يستعيدوا إرتريا بعد أن ابتلعتها إثيوبيا ونسيها العالم. والتجارب أثبتت أن أي تعديل على خريطة العالم ولو بالقوة، قد يكتسب مشروعية، يصبح معها التغيير معقداً جداً.

وضعتُ رأسي على وسادتي وأنا أمنّي النفس بيوم مختلف، ألتقي فيه سعيد.. وربما سمراويت.

أدوزن أغنيتي التالية

وأرفض

أن نكتفي

بالرصيف

م. الشيخ

نهضتُ متثاقلاً. كانت الساعة تقترب من التاسعة وأمامي ساعة ونصف قبل أن يبدأ اجتماع التحرير.

لم أكن من قبل معنياً بهذا الاجتماع لولا انتقال مديري لصحيفة منافسة فوقع عليّ الاختيار لشغل مكانه مؤقتاً. مررت سريعاً على مانشيتات الصحف، سجلت ملاحظاتي ودخلت القاعة.

كنت الوحيد من غير السعوديين يتاح له حضور الاجتماع الذي يضم رئيس التحرير ونائبيه ورؤساء الأقسام المختلفة. يبدأ الاجتماع عادةً بمناقشة عدد اليوم من الصحيفة، فيقوم رئيس التحرير بالإشادة ببعض العناوين ويلفت النظر إلى أخرى بحاجة لتعديل أو إضافة، قبل أن ينتقل إلى أهم المواضيع المقترحة لعدد الغد.

في ذلك اليوم كان الخبر الأهم هو إعلان الحكومة عن قانون منح الجنسية للمقيمين وفق شروط معينة، وهو قانون يقترب من المعمول به في كندا من جمع للنقاط وفق أولويات تحددها الحكومة. نقاط للشخص من أم سعودية، أو متزوج من مواطنة أو له أقرباء من الدرجة

الأولى يحملون الجنسية، إضافةً إلى عوامل أخرى كسنوات الإقامة والمؤهل العلمي وإتقان العربية والديانة الإسلامية بالطبع.

طلب منا رئيس التحرير أن نستطلع آراء وجهاء المجتمع والمثقفين في هذا القرار كل في مجاله، واستطلاع الرأي هنا لا يعني أخذ انطباعاتهم عن القرار بالسلب أو الإيجاب، بقدر ما كان المقصود منه استنطاقهم للثناء على القرار وعلى حكمة الجهة التي اتخذته.

خرجنا من الاجتماع، فانشغل القسم الرياضي بأخذ آراء الرياضيين، ومثله فعل القسم الاقتصادي والمحلي والسياسي، ولم أكن استثناء من كل ذلك.

طلب مني رئيس التحرير أن أستطلع آراء علماء الدين، وهو طلب عاديٌّ في كل شأن، إذ كان واضحاً أن إقحام رأي هذه الفئة هو مطلب يتجاوز رئيس التحرير. كنت أحتفظ بقائمة طويلة من أرقام هواتف أصحاب المعالي والمشائخ والمفتين وحتى مأذوني الأنكحة.

ابتدأتُ بشيخ شهير يتصدر قائمتي الهاتفية، وواجهت الدعوة كأحد المشهود لهم بالعلم والتقى.

أعطيته نبذة عن القرار الجديد، إذ كان متعوداً أن آخذ آراء ضيوف كثر يسمعون الخبر مني للمرة الأولى دون أن يمنعهم ذلك من الإدلاء برأيهم فيه ومدى حكمته، وعبقرية من يقف خلفه.

«.. وحابين يا فضيلة الشيخ نعرف رأيك في هذا القرار لو تكرمت»

«الحقيقة القرار من شأنه أن يزيد البطالة بين أبنائنا.. عيالنا ما حصلوا شغل فكيف نجيب لهم الأجانب ينافسونهم في أعمالهم.

وبعدين وجود هالأجانب برأيي سبب لمشاكل كثيرة يكفي أنهم يسببون التلوث»

لم أعد أعي ما قاله الشيخ بعد جملته تلك.

أنهيت المكالمة وتوقفت عن التدوين.. احترت في توصيف مداخلته، هل يُشكر لشجاعته وخروجه عن المألوف رغم معرفته أن القرار صادر عن جهات عليا؟.

أم تؤخذ عليه هذه النظرة الضيقة لمن يصفهم بالأجانب وهو لا يمل تكرار «إنما المؤمنون إخوة»؟.

أم تراه يتحدث من وجهة نظر اقتصادية معتبرة ومأخوذ بها في معظم دول العالم، لكن خانه التعبير؟.

أياً يكن الأمر، ربما لو كان فضيلة الشيخ يعرف أنه يتحدث إلى أحد مسببي التلوث، لاختار لغة مخففة عن تلك التي صمّ بها أذني.

حملت رأيه إلى رئيس التحرير، فطلب تجاهل مشاركته والبحث عن آخرين.

كثيرة هي المواقف المحرجة التي كنت أواجهها كصحفي غير سعودي، فلهجتي الجداوية الموغلة في المحلية كانت خادعة للكثيرين، فكان بعضهم يسترسل معي في وصف شعوره تجاه «الأجانب»، وكنت أحاول مجتهداً تغيير الموضوع شفقة عليه من حرج يلي اكتشاف جنسيتي.

أحدهم وبعد أن استطلعت رأيه هاتفياً في مسألة ثقافية، أخذ يكيل لي المدح في طرح الأسئلة واقتناص المواضيع المثيرة. أدركُ بالطبع أن كلامه يدخل في باب الرشوة الكلامية كي تحظى مشاركته بمساحة أكبر من الآخرين.

شكرته لكنه أخذ الموضوع إلى وجهة بعيدة

«أنا دايماً أقول السعودي أحسن في كل شيء. . هذا انت صحفي سعودي ما شاء الله عليك أحسن من مية جربوع من اللي بندفع لهم»

شدة حماسه جعلتني أتخيل نفسي جربوعاً ممسكاً بالهاتف، تهت قليلاً في تصور حياتي الجديدة، فهذا الحيوان البري القريب من الفأر يقضي عمره مطارداً من فئة تعشقه عشقاً لمَّاً، حتى قيل إن الجربوع هو كافيار الصحراء. ورغم أنه يتخفى معظم النهار، ما إن يخرج ليلاً لاقتناص شيء يأكله حتى يجد شخصاً يتربص به بمصباح صغير.

لا أعرف لماذا اختار الرجل الجربوع دون سواه كي يشبهني به، لكنه أدخلني في لعبة بها بعض التسلية وإن كانت مؤلمة. . لذا قررت إكمال اللعبة على غير العادة.

«أنا يا دكتور مش سعودي. . انا إرتري»

قطعت جملتي ثرثرته. . صمتَ لحظات. . شعرت أنه يلعن حظه العاثر الذي أوقعني في طريقه

«ما شاء الله عليك. . تتكلم جداوي أصيل. . ليه طيب ما قدمت على الجنسية؟. . أصلاً أنت ولد البلد أنا قصدي غير. . قصدي الأجانب. . انت ولد البلد»

جمل مبعثرة مألوفة في هكذا مواقف، ختم بها الأكاديمي حديثه سريعاً وأنهى المكالمة. . ابتسمت. . على الأقل استطعت أن أصيب أحدهم بفوبيا الجرابيع عوض السعي خلفها.

لا بد إذاً أن تشكرني كُل جرابيع الأرض.

صاحبي..

ما الذي غيركْ؟

ما الذي خدّر الحلم في صحو عينيك.. من لفّ حول

حدائق روحك هذا الشَّرَكْ؟

م. الثبيتي

غادرتُ الفندق باكراً رغم أن موعدي مع سعيد كان بعد الظهر.

هذه المرة كنت أشعر بألفة أكبر مع الطرقات، بدت أسمرا وكأنها تفتح لي ذراعيها، كنت أطالع وجوه المارة وكأني أختبر وجهي، أتمنى أن يكون قد نزع عنه ملامح القادمين الجدد.

خطواتي كانت أسرع، كنت على الأقل كمن يملك وجهة يقصدها.

مررت بالسفارة المصرية لمحت الحارس نفسه الواقف على بابها. لوّحت له بيدي، بادلني التحية مبتسماً. غمرتني السعادة. وددت لو أمر بكل شبر في أسمرا للمرة الثانية، ربما هذا كفيل بأن يجعلني مألوفاً لهذه المدينة.

صباح أسمرا صاخب بعض الشيء، حركة دائبة في كل الاتجاهات، تحتل الحافلات الكبيرة منها النصيب الأكبر، حافلات حمراء كتلك الموجودة في لندن، لكنها هنا تئن تحت وطأة أعداد الركاب. كذلك تنتشر الدراجات الهوائية، إضافة إلى الراجلين في كل

اتجاه، لكن ومع هذا كان يبدو أن آخرين لا يملكون شيئاً يقومون به، فقد كانت المقاهي عامرة أيضاً بمرتاديها.

اقتربت من مودرنا، ومعه كبرت آمالي في لقاء سمراويت مجدداً.

كنت أسير في الجهة المقابلة للمقهى وعيني تسبق خطواتي علّي ألمحها بين الوجوه. تمنيت لو يبدأ يومي بها، سيكون حينها يوماً تظلله البركة وتحفه الرحمات من كل جانب.

قبيل وصولي إلى الزاوية المقابلة للمقهى وجدت متجراً لبيع الموسيقى، كانت فرصة لاقتناء أعمال فنان الثورة إدريس محمد علي الذي يعتبره الإرتريون مطرب الحب والحرب، فهو الوحيد ربما الذي استطاع أن يبكيهم لوعة على أحبابهم مرة، وأن يحضهم على النضال مرات.

لم يكن شكل المتجر يختلف كثيراً عن مثيله في جدة، فقط كان أصغر قليلاً ومزدحماً بالاسطوانات وبملصقات مبعثرة لمطربين ومطربات ملأت جدران المتجر دون أن أتمكن من التعرف إلى أحد منهم.

سألت البائعة عن أغاني التغري المتوفرة لديها، بدا سؤالي مربكاً لها بعض الشيء، تلفتتْ حولها يمنة ويسرى، ثم مدت يدها إلى ركن قَصي وأزالت منه كومة من الاسطوانات قبل أن تلتقط إحداها وتزيل عنها ما علق بها من غبار، وتضعها أمامي وعلى وجهها ابتسامة تشبه من خرج منتصراً من معركة عمره.

قلّبتُ الاسطوانة، كانت مجموعة منوعة لمطربين ومطربات لم أعرف منهم أحداً أيضاً، قررت اختصار الوقت والدخول مباشرة في طلبي

«أريد كل ما لديك من أغاني إدريس محمد علي»

تلاشت الابتسامة سريعاً، وحلَّ محلها ذعر لا تخطئه العين، شعرت بالحرج لما فعله طلبي بالمسكينة التي بدأت تلتفت للمدخل خشية أن يكون هناك من سمعني، وقبل أن تقول شيئاً بادرتُ لإخراجها من هذا المأزق

«لا بأس. . هل هناك اسطوانات للأمين عبد اللطيف أو ود شيخ؟»

«لا يا سيدي. . عرضت عليك كل ما لدي»

«حسناً سأشتريه»

أخذت الاسطوانة، شكرت الفتاة وغادرت المحل.

كنت أتوقع أن لا أجد أغاني إدريس بسهولة، لكن لم يخطر ببالي أن يتحول اسمه إلى تابو يخلق هذا القدر من الذعر بمجرد سماعه.

كنت أعرف أن فنان الثورة معتقل منذ أعوام طويلة دون تهمة واضحة، فبعضهم يقول إنه اعتقل بسبب انضمامه لخلية كانت تنوي الانقلاب على النظام، آخرون يقولون إنه اعتقل لأنه طالب بإصلاحات سياسية، رأي ثالث يرجح أنه لم يفعل شيئاً وأنه ضحية وشاية مغرضة.

كل هذه التكهنات وغيرها تجد رواجاً بين الإرتريين مع غياب رواية رسمية، فلم تقم السلطات بمحاكمة إدريس ولا هي أوضحت سبب اعتقاله، وهو نفسه ما حصل مع مجموعة الخمسة عشر التي تضم خمسة عشر قيادياً من الصف الأول في الحزب الحاكم، وإن كان الأمر هنا يزداد ميلاً باتجاه أنهم طالبوا بإصلاحات سياسية.

لم يكن التعاطف الشعبي مع إدريس محمد علي لكونه مطرباً، فلا

شيء في إرتريا يفوق المطربين عدداً، لكنّه يمتلك تاريخاً نضالياً مشرقاً مع صوته الشجي.

التحق مبكراً بالثورة عبر الانخراط بصفوف قوات التحرير الشعبية، بل يعتبره بعضهم أحد مؤسسيها، ثم قام بتأسيس أول فرقة موسيقية في الميدان، طاف بها العالم شرقاً وغرباً لحشد التأييد لنضال الشعب المنسي في ذلك الوقت.

كان يقاتل نهاراً، ويمسك بآلته في المساء ليمحو بألحانه ما تعرض له الثوار من خيبات، ويستنهض هممهم ليوم آخر، وكان أيضاً يبقي إرتريا حية في نفوس أبنائها المغتربين.

غنيتك في الماضي إذا كان الغناء يكفيكِ

وها أنذا أغنيك ثانية

فأنا لا أملك شيئاً آخر.. إلاكِ

إرتريا.. اسمك محفور في قلبي.

كان لمثل هذه الكلمات تأثير في وجدان الإرتريين الذين لا يصدقون إلى اليوم أنهم قد يكونون حرموا إلى الأبد من فنانهم الجميل، فنان الثورة.

انقطع تتابع أفكاري بوصولي مودرنا.

لم يكن لسمراويت أثر في المقهى. اخترت طاولة قريبة خالية إلاّ من شخص واحد لم يلبث أن طوى صحيفته وغادر بمجرد جلوسي. خطر لي أن أتناول فطوري، لكني آثرت الانتظار على أمل أن تظهر سمراويت فتجعل طعم كل شيء مختلفاً.

سلام أيضاً لم تظهر؛ وهذا ما جعل مودرنا هذا الصباح دون ألق البارحة.

طلبتُ كابتشينو من النادلة والنسخة العربية من صحيفة إرتريا الحديثة. اعتذرتْ بلباقة عن عدم وجود نسخ عربية من الصحيفة، وعرضت عليّ عوضها أن تأتيني بنسخة التغرنية أو الإنجليزية.

«على حد علمي أن الصحيفة تُطبع أيضاً بالعربية»

«صحيح. لكن لا نقوم عادة بتوفيرها لأن الطلب عليها نادر.. إذا كان ذلك ضرورياً سأقوم بجلبها لك من أقرب متجر»

«لا لا.. اعتن بعملك.. فقط دليني على المكان»

سرت قليلاً بمحاذاة المقهى حتى وجدت المتجر الذي وصفته لي النادلة. سألت عن الصحيفة فلم أجدها، ودار تقريباً الحوار نفسه مع البائع. لكنه أشار إلي بثقة العارف إلى متجر في الشارع المقابل يحرص على توفير نسخ عربية.

عبرت الشارع قاصداً المتجر، وهنا بدأت أعي أنني بعدت عن مودرنا بمسافة لم أكن أتوقعها، وجدت الصحيفة أخيراً رغم أنها كانت نسخة أخيرة احتفظ بها مالك المتجر لنفسه لكنه أعطانيها حين عرف معاناتي في البحث عن نسخة عربية. عدت إلى مودرنا ممسكاً بالصحيفة وممتلئاً بنشوة تملك شيء بهذا القدر من الندرة في أسمرا.

طلبت من النادلة أن تأتيني بكابتشينو آخر عوض الذي فقد حرارته، وبدأتُ في تقليب الصحيفة.

صفحات الجريدة لم تكن تتجاوز عشر صفحات كلها بالأبيض والأسود، وبطباعة وخطوط رديئة، لكنها كانت تفي بالغرض.

احتلت صورة الرئيس اسياس أفورقي صدر الصفحة الأولى ومعها خبر زيارته لدولة قطر، إلى جانب ذلك جاء خبر رئيسي آخر يتحدث

عن المجاعة في إثيوبيا، بينما كان النصف الأدنى من الصفحة يعدد منجزات قامت بها الحكومة في مجالات الكهرباء والماء.

الصفحات الداخلية كانت في معظمها تتحدث عن أخبار الأقاليم، باستثناء صفحة للأخبار الدولية، وصفحة للأدب العربي، وأخرى رياضية. انتهيت سريعاً من الجريدة وأنا الذي كنت أبحث عنها كي تمرر الوقت أثناء الانتظار.

خطر ببالي إعادتها إلى مالك المتجر وتحقيق رغبته في حملها إلى البيت، لكنني خجلت وقد اهترأت أوراقها وتمدد بعض الحبر عن مكانه، رغم أني لم أقم سوى بتقليبها سريعاً.

لم تظهر سمراويت، وموعدي مع سعيد دونه الكثير من الوقت. فكرت في الاتصال به لتقديم الموعد خاصة وأنه عرض أن نلتقي صباحاً غير أني فضلت فترة ما بعد الظهر كي أمنح نفسي فرصة لقاء سمراويت.

لحسن الحظ كان في كمشتاتو، فلم تمض دقائق حتى كان يقف أمام المقهى يتفحص الوجوه بحثاً عني.

«مرحباً سعيد»

«أهلا عمر. . كيفك؟»

كان سعيد في منتصف الأربعين تقريباً، طويل القامة، رياضي البنية، ملامحه قاسية بعض الشيء، مع خطوط طولية محفورة بعمق في خديه، ترمز لانتمائه القبلي.

صافحني بيسراه، بينما كانت يد القميص الأخرى ملهاة للهواء يحركها في كل اتجاه.

«تقرأ إرتريا الحديثة ها؟»

«نعم. عثرت على النسخة العربية بصعوبة»

«هنا في أسمرا تحظى نسخة التغرنية برواج أكبر»

«هذا يعني أنني لو كنت في مصوع مثلاً لن أعثر على النسخة التغرنية بسهولة؟»

«بل ستكون محظوظاً لو وجدت النسخة العربية». . قالها ضاحكاً قبل أن يكمل

«كيف وجدت الصحيفة عموماً؟»

«امم. . لاحظت أنها مكتوبة بعربية جيدة، وهناك جهد واضح في صياغة المواضيع صحفياً مع بعض الهنات التي لا تصل لحد التشويه. لاحظت أيضاً أن سقفها ليس عالياً بل تمثل وجهة نظر الحكومة تماماً. ومع ما وصلتْ إليه الصحافة في العالم وفي دول الجوار تحديداً، أراها أقرب إلى صحافة الحائط أو المطويات منها إلى الصحيفة بشكلها العادي اليوم، ولعل العامل الاقتصادي يؤدي دوراً في ذلك».

كان سعيد ينظر في عينيّ مباشرة وأنا أتحدث إليه، ينصت باهتمام ويهز رأسه موافقاً.

انتهيت من حديثي ولم يزل ينظر إلي حتى شعرت بالارتباك، فقد كانت نظرته حادة وعميقة وكأنه يصوب بها.

«أرجو أن لا تغضبك ملاحظاتي، ربما لأني صحفي رأيت فيها كل هذا، لكنها بشكل عام جيدة ومفيدة للقارئ»

أردت بجملتي هذه أن أخفف من نظرته الحادة، أو أجعله يشيح بوجهه ليطالع الصحيفة، خاصة وأني كنت أشير إليها أثناء الحديث.

عدّل من جلسته كمن يتأهب لقول شيء مهم، حمدت الله أن وجد شيئاً أهم من التحديق إلي بتلك النظرة.

«لم تكن حال الصحافة لدينا بهذا السوء قبل عدة أعوام. أتفق معك في كل ما قلته بل وأزيد أن إرتريا الحديثة لا تصل لمستوى طموحات الإرتريين.. وإن كانت النسخة التغرنية أفضل حالاً»

«ماذا؟ أليست النسخة نفسها مع اختلاف اللغات؟»

«ليس تماماً. فهناك مواضيع مختلفة، حتى المواضيع المتشابهة يكون فيها للنسخة التغرنية سقف أعلى، على عكس النسخة العربية التي تراوح في المدح والتطبيل للحكومة»

«يا رجل.. صدمتني!.. هل هناك قرار بهذا الشأن؟»

«لا أبداً. هي فقط قناعات القائمين على كل نسخة، ومستوى المهنية والشجاعة التي يتمتعون بها»

«قلتَ إن مستوى الصحافة كان أفضل.. كيف كان ذلك؟»

«بعد الاستقلال أوائل التسعينيات، انتهجت الحكومة انفتاحاً على كل المستويات تقريباً، وكان نصيب الصحافة من ذلك كبيراً، فصدرت صحف عديدة، وكان السوق ومدى الانتشار هما معيارا البقاء، لم تكن هناك أي خطوط حمراء تذكر، فكانت الصحافة قادرة على تناول المسؤولين بالنقد والسخرية، بل وصل الأمر أن أصبح ذلك وجبةً يومية لمعظم الصحف

تلك الفترة مثّلت ربيع الصحافة هنا، تجاوزت فيه إرتريا كثيراً من دول العالم المتقدمة في حرية الصحافة، لكن هذا الربيع للأسف وككل الفصول لم يلبث أن تلاشى، دون أن يحقق دورته الكاملة ويعود إلينا من جديد»

بقدر انشغالي بالمعلومات الجديدة والصادمة التي أمدني بها سعيد

كنت منبهراً بمستوى ثقافته. حين سألته عن ذلك أخبرني أنه كان واسع الاطلاع منذ نشأته، وأنه تابع قراءاته حتى وهو في الميدان، فالثورة كانت على مستويات عديدة ولم تكن محصورة في القتال، لذا انتشرت فصول محو الأمية والدروس الإلزامية للثوار في فترات الراحة والإعداد للمعارك.

«هل تعلم يا عمر أنني كنت مغرماً بالكتابة والأدب؟ كنت أود أن أصبح روائياً لولا أن المقادير أخذتني إلى مرسى آخر؟»

«لا أظن أن شيئاً قد فات. بإمكانك تحقيق أمنيتك. كل أدواتك في يدك»

التفت إلى ما تبقى من يده المبتورة ضاحكاً

«يد واحدة قد تنوء بحمل ما يلزم من أدوات»

شعرتُ بالحرج لأني أيقظت فيه إحساساً بالنقص في وقت كان يتحدث فيه عن طموح العمر، لكنه أكمل دون أن تفارقه ضحكته

«لا عليك. لا تشفق علي.. كنت أمزح.. لا علاقة للأمر بيدي المعطوبة بل ربما بأمور أخرى»

لم أفهم ماذا كان يقصد بالأمور الأخرى ولم أكن أنوي سؤاله.. لكنه اختار أن يجيب

«فقدت الرغبة يا عمر.. ومن يفقد الرغبة في شيء، قد لا تسعفه كل أدوات الدنيا.. هذا كل شيء ببساطة»

حتى في لحظات ضعفه لا يبدو هذا الرجل منكسراً، إنه كمن قرر أن يفقد شيئاً يعرف تماماً كم هو مهم بالنسبة إليه، يبدو مستمتعاً بقراره هذا أكثر من تأثره بالفقد.

مع هذا رغبت في رفع معنوياته وتحفيزه، كدت أخبره أن الرغبة بالإمكان استرجاعها، غير أني بدوري سرعان ما فقدت الرغبة في ذلك، فقد لاحت لي سمراويت وهي تتجه نحوي وتحيل كمشتاتو لحدائق من القرنفل والرياحين.

لكل الذين يموتون قبل الميعاد

وكل اليؤرقهم عشقُ هذي البلاد

وكل العباد. . .

إلى آخر القائمة.

م. الشيخ

تفقدُ بريدي الإلكتروني أصبح مع مرور الوقت مهمة شاقة مع العدد المتزايد من الرسائل التي تردني من كل اتجاه، معظمها دعوات لمناسبات ثقافية، وكنت حريصاً في انتقاء أكثرها جدية وفائدة، إذ كان بعضها تسويقاً فجاً لمنتج رديء.

في إحدى المرات تلقيت دعوة لتغطية أمسية ثقافية تتحدث عن الوجود العربي في الحبشة. كان المتحدث أحد أعضاء النادي الأدبي، وبحضور متخصصين ومهتمين. اتصلت بأحمد لأسأله إن كان مهتماً بالموضوع فرحب على الفور لمرافقتي.

«جدة تكفي». .

كانت هذه هي جملتي الأثيرة حين كنت أتحدث عن الحياة في السعودية، فهذه المدينة الكبيرة كانت من التنوع والغنى بحيث تملأ رئتيك وتنعش روحك.

حتى السعوديين من المناطق الأخرى كانوا يدركون حجم اختلاف جدة وتفردها في كل شيء تقريباً، وانفتاحها النسبي على الثقافات

الأخرى، لذا لم أكن أفوّت معظم الفعاليات التي تعقدها الصالونات الأدبية الخاصة، أو نادي جدة الأدبي بدرجة أقل.

كانت هذه الصالونات تقيم مناسباتها في الفترة المسائية وهو ما يتيح لي التفرغ لمتابعتها بعد انتهاء عملي في الصحيفة، كما أنها عادة ما تشكل مادة ثرية لعملي الصحفي رغم عدم قدرتي على نشر كل ما يقال فيها.

ولعل تطرقها لمواضيع حساسة بجرأة كبيرة يعود لارتباطها بوجهاء المدينة بحيث تحظى ببعض الحصانة أو التغاضي من قبل السلطات التي كانت بالطبع على دراية بما يدور داخلها.

كان لكل وجيه صالون عادة ما ينسب لليوم المقام فيه، فهناك ثلوثية الدكتور سعود مختار الهاشمي، وثلوثية المكية التي يشرف عليها سامي عنقاوي، وأحدية محمد سعيد طيب، وإثنينية عبد المقصود خوجه، بالإضافة إلى صالونات أخرى أقل شهرة وحضوراً.

«اسمع . . عادي احنا الأجانب نجي هنا؟»

اكتفيت بنظرة ناقمة على أحمد جواباً عن سؤاله، ونحن نعبر مدخل النادي الأدبي

كان الحضور جيداً قياساً إلى عنوان الأمسية، لمحت وجوهاً معروفة في الوسط الثقافي السعودي، وأخرى لم أتعرف إليها. كان من بين الحضور شخصيات إرترية وإثيوبية كما دلت على ذلك ملامحهم.

حضورنا المبكر أتاح لنا أن نجلس في مواجهة المتحدث الذي ابتدأ حديثه بأهمية الحبشة عبر التاريخ، وكيف أن الهجرة العربية إليها وخصوصاً من جنوب الجزيرة العربية شكّلت عامل النهضة الأول في

تلك البلاد التي لم تكن تعرف الزراعة بشكلها الحالي قبل قدوم العرب.

أسهب المحاضر في الكلام عن الوقائع التاريخية بشكل أصاب الحضور بالملل. مال أحمد نحوي وهمس: «ايش رأيك نمشي.. صاحبك هذا جاب لي النوم»

«دقيقة خلينا نشوف آخرها.. بعدين كيف نخرج واحنا في الصف الأول.. شكلنا راح يكون بايخ»

بدا أن أحمد اقتنع بجملتي الأخيرة وخضع للأمر الواقع، لكنه مع هذا أخرج هاتفه وأخذ يتصفحه.

انتهى المتحدث من كلمته وفتح المجال للمداخلات والأسئلة. كان الصحفي المخضرم محمد صادق دياب أول من تحدث فغيرت مداخلته جو الأمسية بالكامل.

تحدث دياب عن أواخر الستينيات الميلادية حين أتيحت له زيارة أسمرا. بدأ بوصف جمال المدينة ونظافتها بأسلوبه المشوق ولهجته الجداوية الأنيقة، وقبل أن ينهي مداخلته سرد على الحضور حكاية قال إنه لم يستطع نسيانها قط، إذ إنه وبعد زيارته الأولى وقع في غرام المدينة وبات يزورها باستمرار. وفي إحدى المرات وبينما هو مقيم في شقة تطل على شارع رئيسي إذا بالشرطة تقرع الباب. استغرب أول الأمر من وجودها وظن أن في الأمر خطأ ما، لكنه سرعان ما عرف سبب وجودها عنده. فقد أخبرته أن جواربه المعلقة على جانب من الشرفة المطلة على الشارع تشوه المنظر العام.

ضجّت القاعة بالضحك والتصفيق. كان أحمد قد اعتدل في جلسته ودس هاتفه في جيبه وبدا شديد الانتباه والتفاعل

«هذا الكلام. . مو درس الديناصورات حق صاحبك»

تحدث بعد دياب ثلاثة آخرين لم يذهبوا بعيداً عن مداخلته، قبل أن يقوم أحد الإرتريين بمداخلة أخذت الأمسية في اتجاه آخر. . اتجاه صادم.

عرّف الرجل نفسه بحسين أفندي دون إضافة أي صفة أخرى.

ابتدأ كلامه بشكر المتحدث الرئيس على المعلومات التي وصفها بالقيّمة لكنه أضاف أنه يريد الحديث أكثر عن الوجود العربي الحديث في إرتريا

«ربما يكون معظمكم قد سمع عن الرشايدة في إرتريا، وهي قبيلة غادرت وسط الجزيرة العربية خلال القرن الماضي إلى إرتريا واستوطنت هناك مناطق تشبه إلى حد كبير المنطقة التي غادروها. اشتغل معظمهم برعي الغنم. ورغم حصولهم على الجنسية الإرترية فإنهم في الغالب حافظوا على عاداتهم في الملبس وحتى في لهجتهم البدوية المميزة. ورغم المحاولات المتعددة لإدماجهم في المجتمع فإنهم حافظوا على تمايزهم عن بقية قبائل إرتريا، لكن هذا لم يجعل منهم فئة مهمشة أو منبوذة بين الإرتريين، بل على العكس من ذلك فقبيلة الرشايدة اليوم هي إحدى القوميات الإرترية المعترف بها رسمياً».

كان الرجل يتحدث ببطء وبنبرة عميقة منحت حديثه انتباهاً لافتاً. كان ينتقل بنظراته بين الحضور وكأنه يحاصرهم ولا يريد لكلماته أن تضل طريقها إليهم

«في مقابل الرشايدة هناك فئات لا يتم الحديث عنها كثيراً، ولهذا قد لا يكون معظمكم سمع عنها. هل تعلمون يا سادة أن أعداداً كبيرة من السعوديين قد غادرت المملكة إلى إرتريا بحثاً عن الأمان ولقمة

العيش فاشتغلت برعي الأغنام والتجارة في منطقة «وقيرو»، ولهذا يسميهم الإرتريون «عرب وقيرو»؟

معظم هؤلاء كانوا من أهالي الجنوب كقبائل غامد وزهران في الباحة وما جاورها ومن أهالي جيزان.

مع تحسن الأوضاع الاقتصادية في السعودية قام الملك فيصل بدعوة عرب وقيرو للعودة إلى بلادهم، ثم ما لبث الأمر أن ساء في إرتريا مع بدء حياة التشرد واللجوء التي فرضتها إثيوبيا، وقدم جزء من الإرتريين إلى السعودية، فما كان من الملك فيصل إلا أن أكرم وفادتهم رداً للجميل، ومنحهم إقامات حرة تحت الرقم 44، وقام عرب وقيرو بكفالة الوافدين الجدد.

استمرت الامتيازات الممنوحة للإرتريين في عهد الملك خالد، لكنها تلاشت بعد ذلك، ليعود الإرتريون في السعودية مجرد أجانب ليس أكثر»

صمت الرجل قليلاً، وكأنه يرى أثر كلامه على الحاضرين. كان الصمت يطبق أيضاً على القاعة بشكل غريب قبل أن تأتي مداخلته الأخيرة:

«هل تعلمون أن أول سيارة تجارية دخلت السعودية كانت من إرتريا؟..

وهل تعلمون أن كسوة الكعبة ظلت زمناً تأتي من إرتريا؟..

نحن الإرتريين لسنا نطالب بامتيازات عن الآخرين، فنحن سنعود يوماً ما لوطننا، لكننا فقط نريد منكم أن تتذكروا دوماً أنكم كنتم كراماً بيننا، وتذكروا أننا ما تركنا بلادنا إلا لظروف قاهرة.. مثلكم تماماً»

التهبت القاعة بتصفيق شديد استمر حتى عاد الرجل إلى مكانه. كان أحمد أكثر المتحمسين، حتى أنه من فرط حماسه أخذ يطلق صفيراً صمّ أذني.

انتهت الأمسية فتوجهنا على الفور إلى السيد أفندي. عرفته بنفسي وكذلك فعل أحمد

«كلماتك كانت مؤثرة.. شعرنا بالفخر لأنك سردت تاريخاً ناصعاً يخصنا، لم نكن على دراية به.. أتمنى بالفعل أن نلتقيك مجدداً كي نتعرف أكثر إلى إرتريا»

«سعادتي بالمثل.. حددا الزمان وسأكون سعيداً بالحديث إلى شباب مثلكم، فأنتم مستقبل إرتريا»

طوال طريق العودة وأحمد يعيد عليّ بحماس شديد بعضاً من جمل السيد أفندي وكأنني لم أكن موجوداً في الأمسية. كانت هذه هي طريقة أحمد في التفاعل مع الأمور التي تروقه، أشعر أحياناً وكأنه يتعامل مع كل الأمور كما يفعل مع الاتحاد، فريقه الذي يعشقه أكثر من أي شيء آخر.

كنت على النقيض منه أشجع «الأهلي» خصم الاتحاد اللدود، ومنافسه في جدة.

كثيراً ما كان يردد أن الاتحاد هو فريق الأجانب، بينما الأهلي فريق الأمراء وعلية القوم، وكان دائماً ما يسألني كيف أشجع الأهلي وأنا أعرف أن حارس مرمى الاتحاد «حسن خليفة» إرتري الأصل؟

لم يكن أحمد يمل سماع جوابي الدائم:

«أعلم أن حسن خليفة إرتري، لكنّ هذا لا يكفي لأشجع الاتحاد»

كان أحمد متعصباً للاتحاد، ومتعصباً لإرتريا. كثيراً ما شعرت أن الوطن بالنسبة إليه كالاتحاد، لا يريده أن يخسر أو حتى يتعادل، يريده منتصراً دائماً، رغم أنه أكثر من يعرف أنه لا يوجد فريق في العالم ينتصر دائماً.

كان موعدنا مع الرجل في منزله مساء الأربعاء، لم نكن وحدنا، وجدنا بانتظارنا شخصين آخرين عرّفنا بهما السيد أفندي، ثم بدأ في الحديث.

أخبرنا أن لقاءاتنا ستكون بشكل دوري، وأنها ستكون تثقيفية في تاريخ إرتريا، ورحب بدعوة من نرى فيه من أصدقائنا الرغبة والجدية.

لا أعرف لماذا بدأتُ أشعر أن اللقاء أصبح بروتوكولياً أكثر من اللازم وكأننا في اجتماع لمنظمة أو جمعية ما. ربما كان شعور أحمد مماثلاً فقد رأيته يلتفت إلي وكأنه يريد قول شيء.

«برأيكما. . ما هي مشكلة إرتريا الأكبر منذ الأزل والتي تعوق تقدمها حتى بعد الاستقلال؟»

رغم أن سؤال السيد أفندي كان موجهاً لكلينا، فقد التفتُّ إلى أحمد بانتظار إجابته وكأن الأمر لا يعنيني. لم أكن أريد عرض جهلي بإرتريا من اللقاء الأول. أراحني أحمد حين أجاب

«ربما لا توجد مشكلة وحيدة، هناك عدد من المشاكل، كالفقر، وتربص الدول المجاورة، ورغبة أمريكا في الهيمنة على إرتريا»

«يا ابني هذه إجابة الشعبية. . أنا أريد إجابتك أنت»

بدا وكأن أحمد لم يعجبه التعليق، فأردف على الفور

«وهي إجابتي أيضاً»

لم يكن السيد أفندي يعلم أن أحمد عضو نشط في الجبهة الشعبية للديمقراطية والعدالة، الحزب الحاكم والوحيد في إرتريا، والذي يطلق عليه الإرتريون اختصاراً «الشعبية»، وإذا ما صدق ظني أن الرجل معارض فأنا أمام صدام بين الاثنين لا محالة.

«وأنت ما هي إجابتك؟»

ابتسمت ببلاهة، وقلت إنني أتيت من أجل الحصول على الإجابات وليس تقديمها. كان مخرجاً جيداً، لأن ابتسامة رضا علت وجه السيد أفندي، قبل أن يكمل

«مشكلتنا الكبرى هي في وجود المسيحيين في إرتريا. هذا العنصر النشاز هو سبب كل ما نحن فيه. قبل التحرير تأخر التحاقهم بالثورة حتى كادت تنتصر، بل كانوا عوناً لإثيوبيا علينا. وبعد التحرير وإعلان استقلال البلاد قطفوا الثمرة وأصبحوا أسياداً ونحن العبيد، وذهبت كُل تضحياتنا من أجل الوطن سدى»

لم يتم السيد أفندي كلامه، بسبب مقاطعة أحمد الحادة

«هذه النظرة الطائفية المقيتة هي مشكلتنا الكبرى إذا أردت أن أكون صريحاً معك يا سيد حسين. . أنت وأمثالك ممن يلعبون على هذا الوتر سبب مشاكل إرتريا. الشعبية انتصرت وحرّرت إرتريا لأنها نبذت هذه الأفكار التي تغذت عليها وتاجرت بها بقية التنظيمات، وأين هي الآن هذه التنظيمات؟ إنها تتسكع باسم المعارضة في كثير من دول العالم. المسيحيون يا سيِدي جزء من الوطن، لن يختفوا منه كما لن نختفي منه نحن أيضاً»

كان أحمد أكثر إقناعاً، لكني خشيت من توتر الوضع أكثر، خاصة أنه كان يتحدث وملامحه غاية في التوتر.

ابتسم السيد أفندي بشيء من السخرية قبل أن يوجّه سؤالاً جديداً، لكن هذه المرة لأحمد فقط

«يبدو أن الشعبية غسلت مخك. أخبرني إذن ماذا ترك لك شركاؤك من هذا الوطن؟، إذا كان المسلمون يمثلون قرابة خمسة وسبعين في المئة من التعداد العام، أين هم من المناصب الهامة والقيادية بدءاً من رئاسة الدولة حتى أصغر مسؤول فيها. . أين هم؟ هيا أخبرني»

«هم موجودون بقدر وجودهم في إرتريا. هل تريد منهم أن يمنحونا مناصب ونحن هنا؟ هل تريد رئاسة الدولة عن بعد؟ المسيحيون موجودون في إرتريا ونحن خارجها، لذا من الطبيعي أن تكون معظم المناصب لهم»

هذه المرة أيضاً بدا أحمد أكثر إقناعاً بشكل أثار إعجابي. كانت أجوبته حاضرة وكأنه على علم مسبق بأسئلة الرجل الذي احتفظ بهدوئه وأخذ ينظر للاثنين الآخرين دون أن تفارقه ابتسامته. رد على أحمد لكنه هذه المرة وهو ينظر إلي

«يا ابني دعك من أكاذيب الشعبية التي يرددونها صباح مساء، المسلمون في إرتريا يعلمون أن كل هذا هراء، الحقيقة أن إرتريا في طريقها كي تصبح دولة مسيحية بالكامل. أنا أشفق عليك أن تصبح بوقاً لأعدائك»

استمر السجال بين الرجلين ككرة المضرب، كلٌ يعيدها إلى صاحبه بحجة أقوى، ودون أن تلين مواقفهما.

لاحظت أخيراً أن اهتمامهما أصبح منصباً على إقناعي بشكل أساسي بعد أن كان كل واحد منهما يسعى إلى إقناع الآخر بادئ الأمر.

خرج أحمد قبلي من منزل السيد أفندي الذي استوقفني ليهمس في أذني أن آتي بمفردي في المرة المقبلة.

في الطريق كان أحمد لا يزال متوتراً بعض الشيء، فأردت أن أخرجه من هذه الحالة

«ما شاء الله عليك، ردودك جاهزة وحججك مقنعة، هلكت الراجل»

«أصلاً احنا عارفين كل مواضيعهم، وجاهزين لهم، المعارضة في كل مكان عندهم نفس الحجج، واحنا فاهمين أساليبهم وحافظينها»

«انتو مين؟»

«الشعبية طبعاً».

ونظرتُ في عين السَّما

فخَبتْ شَراراتُ الظما

وانشقَّ

عن مطرٍ

غمامي

م. الثبيتي

«هاي عمر.. صباحو»

«أهلين سمراويت.. صباح الخير.. هذا صديقي سعيد.. هذه سمراويت.. صديقتي»

لوهلة فكرت أن أطلق عليها صفة أكثر قرباً، غير أني تداركت رغبتي في آخر لحظة.

مدّت يدها لمصافحة سعيد فمدّ لها يسراه، أربكها الموقف قليلاً، فلم تكن قد انتبهت ليده المقطوعة، تدخلت لتبديد ارتباكها

«تفضلي شو تشربي؟»

أخرجتْ سمراويت من حقيبتها رواية رحلة الشتاء، وبدأت تصف إعجابها بالرواية، وكيف أنها وقعت في غرام كاتبها. هززت رأسي موافقاً ونظرت إلى سعيد الذي كان يبدو في انتظار تلك الإشارة لينطلق في الحديث

«ناود، روائي وكاتب مبدع، لكنه قبل ذلك سياسي من طراز رفيع

قلّ أن نجد مثيله، ولو لم تكن إرتريا مهمشة إعلامياً لتم الاحتفاء كثيراً بهذا الرمز الذي لا يقل أبداً عن أهم الرموز الوطنية حول العالم. يكفي أنه مؤسس حركة تحرير إرتريا أول حركة سياسية وهو من ألغاها بعد التحرير لاعتقاده بانتفاء سبب وجودها. كان الأول، لكنه اختار بملء إرادته أن يتجنب السعي خلف السلطة لتسير العربة بإرتريا نحو غد أجمل. رغم أني عادة ما أعاتبه عتاب المحب حين يتطرق إلى هذا الموضوع أمامي»

«هل تعرفه شخصياً؟». . صاحت سمراويت. ولو انتظرتُ قليلاً لكنت سألت السؤال نفسه.

«بالطبع. بيت العم محمد مفتوح للجميع وهو يرحب دوماً بالشباب ويقضي وقتاً طويلاً معهم»

«وهل تستطيع ترتيب لقاء لنا معه؟»

هذه المرة كنت صاحب السؤال، وبقدر رغبتي في لقاء ناود، كان اللؤم يملأ سؤالي فقد كانت رغبتي الأساسية هي قضاء وقت أطول مع سمراويت.

أجرى سعيد اتصالاً، وأخذ لنا موعداً في نهاية الأسبوع. كانت الفرحة لا تسع سمراويت، وكنت مثلها مع اختلاف الأسباب بالطبع.

«سعيد. . نسيت إخبارك، سمراويت ابنة روائي إرتري وشاعرة لبنانية»

«آه صحيح؟ من هما يا سمراويت؟»

«أبي أبراهام ولد ماريام، وأمي كاتيا حداد»

«أنت ابنة المعارض الشهير أبراهام ولد ماريام؟»

«معارض؟». . قلتها وأنا أنظر لسمراويت مستغرباً، شعرت أني أكثر حاجة من سعيد لأتعرف إلى سمراويت من جديد.

لم ينتظر سعيد رد سمراويت

«برأيي أن ما تقوم به المعارضة في الخارج هو عبث مركب، عدة فصائل، وسنوات من التخندق خلف شاشات الكمبيوتر، والنتيجة صفر دائماً»

لم يعجب سمراويت التعليق فردت بشيء من الحدة:

«هذه المعارضة التي لا تعجبك، تسعى منذ سنوات كي تحررك من الحياة البائسة التي تعيشها أنت ومعظم الإرتريين هنا، وكونها لم تصل لمبتغاها لا يعيبها، إذ يكفيها شرف المحاولة»

شعر سعيد بوقع كلماته على سمراويت فأراد تخفيفها:

«أنا آسف. لست هنا أتحدث عن والدك بالتحديد. . أنا أتحدث عن عموم الفصائل المعارضة التي لا تجد لها قواعد على الأرض وتكتفي ببضعة مواقع إلكترونية هنا وهناك. إذا كانت هذه الفصائل تسعى لتحريري كما ذكرت، فأنا أقدّر ذلك، لكنّ هذا حتماً يتطلب أكثر من شاشة ولوحة مفاتيح، كما أني لا أفهم حتى اليوم ما علاقة تحريري بالدعوة لحق تقرير المصير بالنسبة إلى القوميات؟»

هنا آثرتُ التدخل حقناً للغضب الذي بدأ يتطاير من وجه سمراويت:

«ما رأيكما لو نؤجل هذا الحوار المهم لوقت آخر. . كنت أفكر في زيارة نصب الشاعر العالمي بوشكين ما رأيكما؟»

سمراويت كانت لا تزال متأثرة بالحوار الساخن بينما جاء رد سعيد سريعاً:

«أنا مضطر إلى المغادرة لقضاء بعض الأمور، اذهبا وسنلتقي حتماً في الأيام القادمة قبل موعدنا مع العم ناود. . آنسة سمراويت أنا آسف للمرة الثانية إذا كان حديثي ضايقك»

ردت سمراويت دون أن تنظر إليه:

«لا عليك».

دس سعيد شريحة هاتف في يدي

«هذه باسم خالتي خصصتُها لأصدقائي الزائرين. . لا تخبر أحداً بذلك، كي لا تكون آخر من يستخدمها. سلام».

ظلت سمراويت صامتة، نهضت من كرسيّي وجلست في كرسي سعيد الذي كان ظهره للمارة، لكنه كان أقرب لسمراويت. . عليه اللعنة كيف يغضبها وهو بهذا القرب؟

«لم أكن أظن أنك عصبية إلى هذا الحد، كان مجرد عرض لوجهات نظر مختلفة»

«نعم. ربما بالغتُ قليلاً في ردة فعلي، لكنني لا أطيق الذين يدافعون عن الشعبية. . وخاصة إذا ما كانوا أكثر من يعاني منها»

«وما أدراك أن سعيد يعاني من الحكومة؟ ربما كان مقتنعاً بأنها الأفضل. . أقصد أن هذا رأيه ويجب علينا احترامه»

«عمر. . الوطن ليس وجهة نظر. الوطن لا يعيش في المناطق الرمادية، إما أننا في وطن حر وديمقراطي، أو أننا نعيش في ظلام التخلف والدكتاتورية، وأظن أنك تعرف تماماً أين نحن، إلا إذا كان لك رأي آخر؟»

«هذه الروح المتوثبة. . هل هي جينات والدك أم والدتك؟»

«لا أحب عادة أن أجيب عن السؤال بسؤال آخر. . ولكن هل تتهرب من الإجابة؟»

«لا. لا أتهرب. . كل ما في الأمر أنني هنا من أجل الإجابة عن هذا السؤال وغيره. استمعت لوجهات نظر مختلفة، وكل وجهة نظر يدافع عنها صاحبها بتعصب لا يتيح لمثلي الوصول إلى قناعة تامة بشأنها، لذا جئت بنفسي إلى هنا، كي أتعرف إلى وطني أولاً، ولأصل لقناعتي الخاصة حوله، بعيداً عن أي تأثير جانبي»

«لا أظن أن الأمر معقد إلى هذا الحد، أنت صحفي، وبإمكانك الوصول إلى الخيوط التي تقودك إلى الحقيقة بطريقة سهلة، هذا الفقر الذي يعيش فيه الإرتريون، ومشاكلنا مع كل دول الجوار، وحروبنا المتكررة مع إثيوبيا التي تفوقنا عتاداً وعدة، والتجنيد الإجباري بلا أمد، وتعطيل الدستور والحياة السياسية، والحزب الواحد المتحكم في رقاب الشعب. . كل هذه الأمور ألا تصلح مقياساً للحكم؟»

«تصلح مقياساً للحكم يا سمراويت لولا وجود وجهات نظر مقنعة في الاتجاه الآخر. . دعينا الآن من هذه الأمور، لدينا وقت طويل لاختبارها لاحقاً. . هل تأتين معي لبوشكين؟ صُدمت حين علمت أن أصوله إرترية»

«نعم. أنا مثلك تماماً، لكن صدمتي كانت منذ فترة طويلة، يبدو أنك إرتري مستجد»

قالتها وهي تضحك ضحكة صافية، تمنيت لو تستمر العمر كله، كي لا تمر بي لحظة ظمأ واحدة.

زرنا النصب الذي بناه الروس تخليداً لشاعرهم العظيم وأهدوه

لأسمرا اعترافاً بأصوله الإرترية، بعدها قضينا ساعات ونحن نبحث عن زوديتو في إندا ماريام وما جاورها دون جدوى.

اقترحتْ سمراويت أن نتناول غداءنا في مطعم النيل الأزرق:

«إذا كنت تحب «الزقني» ستكتشف أجمل مطعم يعده، وإذا لم تكن ستغير رأيك مؤكداً بعد هذه الزيارة»

كنت أعشق الوجبة الإرترية الأشهر، لكني هذه المرة كنت أود معرفة طعمها في حضور سمراويت، كيف لا وكل الأشياء المعتادة في حضرة هذا الملاك تخلع عنا اعتيادنا، لتصبح مدهشة شهية في كل مرة.

مع سمراويت يمرّ الوقت سريعاً، كما يفعل عادة حين نكون مأخوذين بشيء يأسر الأرواح.

قضينا أياماً مررنا فيها بطرقات وأزقة أسمرا التي ازدادت ألفة، كانت هذه الفتاة المعجونة بالحسن جواز مروري الأبدي نحو أسمرا.

أصبحتْ لقاءاتنا تبدأ مع طلوع الشمس، لتستمر طوال اليوم، لا يضع لها نهاية إلا غروب ذات الشمس التي أعلنت البداية.

زرنا الأحياء الإيطالية العتيقة، كزبندا طليان، ترافولو، مررنا بجامع الخلفاء الراشدين ومنه إلى كنيسة إندا ماريام، وفي كل هذا كانت سمراويت صاحبة القرار

«بما أني أقدم منك كمواطنة، وسبق لي زيارة أسمرا كثيراً، سأكون دليلك السياحي»

بل قولي دليلي العاطفي، فما تقومين به يثري وجداني.. يجعلني أتعلّق بكل شارع وكل زاوية تنال شيئاً من عطرك الذي يدوخني، يمعن

في قتلي كل مرة يمر بي، وما أكثرها، لستِ بحاجة لعطر، لكنكِ موغلة في التسلل إلي، في التعمق فيّ، في التشظي بداخلي.

أكثر ما أخافه أن أسير يوماً وحدي في أسمرا. . لن تعود هذه الأماكن عامرة بدونك. . ستفقد مبرر وجودها، فهي الآن ملتصقة بك ومتوحدة فيك، بحيث لا أستطيع تذكرها إلا معك. . أو رؤيتها إلا من خلالك.

كأنك تعيدين تأثيث ذاكرتي من جديد، تسقطين عنها كل ما علق بها عبر السنين دون أن يكون له طعم يوم واحد من أيامك. . بل لحظة واحدة معك.

هل أحببتك؟. . وهل بوسعي فعل شيء آخر؟

«اسمك يعجبني، أشعر أن موسيقاه عذبة، ماذا يقول من يريد أن يزيد هذا الاسم غنجاً»

«سمرا. . أبي يناديني سمرا، أحب هذا الاسم كثيراً، لكن انتبه هذا الاسم مرحلة متقدمة. . ها». .

«أحياناً يجدر بنا أن نقفز إلى تلك المرحلة، غير ذلك هو مضيعة للوقت». .

«لكن هذا قد يوقعنا في سوء التقدير». .

«وليكن، ألم يقل فيكتور هوجو ذات مرة إن الحب هو أجمل سوء تقدير بين الرجل والمرأة. . سمرا. . أحبك». .

كنت كمن ألقى بأولى كلماته. . وآخرها على السواء.

بهذا الاعتراف لم تعد هناك حاجة لكلمات أخرى. . فقدتْ بقية الأحرف الأربعة والعشرين مبرر وجودها.

ولم أعد أملك الآن سوى الانتظار.

أشاحت بوجهها قليلاً فتتسلل إلى وجهي شيء من ضوء الشمس كانت خصلات شعرها تحجبه عني، لم أنطق، انتظرتُ رداً على جملتي الأخيرة. لم تنطق، كبر الخوف في داخلي، كان قلبي ينبض بقوة، خشيت أن يخترق صدري ويخرج، خشيت أن تسمع دقاته على أقل تقدير.

ولم تنطق.

تلحّ عليّ مقولة ميلان كونديرا: «في الانتظار يصيبنا هوس برصد الاحتمالات الكثيرة».. وأنا في هذه اللحظة مصاب بهوس رصد كل احتمالات الدنيا.

ولم تنطق.

أعادت إليّ ضوء وجهها الذي حجب الشمس من جديد، نظرتْ إليّ.. نظرتْ في عينيّ مباشرة.

ولم تنطق.

ابتسمت فقط.. وكان هذا أبلغ من كل الكلام.

فهاتِ على هامش الوقت نافلةً
ركعتين
من
النازعات إلى الزلزلة

م. الشيخ

شيئاً فشيئاً بدأتُ أتردد على مقر الجالية، حتى دون أن يكون أحمد معي. بدأتْ تكبر داخلي الرغبة في أن أكون إرترياً لكن بطريقتي.

تملصتُ من دعوة أحمد للانضمام للشعبية، كنت أفضّل التريث وفهم ما يجري قبل التورط في أي شيء. وكان لمحمود أكبر الأثر في أن أبقى قريباً بما يكفي من كل ما يجري، دون أن أصبح جزءاً منه.

التقيتهُ في الجالية بالصدفة، وهو القادم حديثاً من القاهرة بعد أن أنهى دراسته في القانون. سنوات طويلة مرت على آخر لقاء بيننا، حين كنت ألتقيه أثناء زياراتي أقاربي في باب مكة وسط جدة.

«ملامحك لم تتغير كثيراً. . حملتَ الشكل نفسه بحجم أكبر»

«حتى أنت. لم تتغير قط»

ردي هذا لم يكن دقيقاً بالمرّة. فقد اكتشفت لاحقاً أن محمود تغير كثيراً.

أضافت له الحياة في القاهرة وعياً سياسياً ميّزه من البقية، كان

ناشطاً في اتحاد الشباب هناك، وهو اتحاد عريق سبق الدولة بانطلاقه في الخمسينيات، كما منحته دراسته للقانون عمقاً أكبر في نظرته إلى الأمور، فكان ذو نظرة نقدية لا يقبل مرور فكرة، ما لم يكن مقتنعاً بها، لذا كان وجوده في الجالية وفي هذا التوقيت بالذات مهماً بالنسبة إلي، وأنا الآتي بتوجس يجعلني أقدّمُ رجلاً وأُرجع أخرى.

«هل تملك عضوية في اتحاد الشباب؟»

«الحقيقة ليس بعد.. أفضّل رؤية الأشياء عن بعد.. لا زلت في البداية»

لم تستمر هذه الفكرة طويلاً، عرّفني محمود إلى مسؤول الاتحاد. سجّلت اسمي عضواً في الاتحاد الوطني لشباب وطلبة إرتريا، وبدأتُ حضور اجتماعاته والمشاركة في فعالياته.

كان للاتحاد لجنة إدارية مكونة من رئيس وستة أشخاص يأتون جميعهم عبر عملية انتخابية، إضافة إلى عدد كبير من الأعضاء المسجلين يكوّنون لجان عمل مختلفة، كان نصيبي منها اللجنة الإعلامية التي يرأسها محمود.

كنتُ في البداية مأخوذاً بالاتحاد، وطريقة عمله. هي المرة الأولى أكون فيها جزءاً من عمل يتشكل من مفردات جديدة عليّ كالانتخاب والعمل النقابي، هذا الشعور سرعان ما أخذ يخبو مع الوقت، وانتقادات محمود

«إذا لم تكن مقتنعاً بالاتحاد.. فلماذا تنشط فيه؟ ولماذا دعوتني إليه من الأساس؟».

«لست مقتنعاً بالاتحاد في وضعه الحالي، أسعى ليعود كنسخته الأصلية حين كان اتحاداً عاماً وليس اتحاداً وطنياً تحت مظلة الحكومة.

آنذاك كان الاتحاد لكل الشباب من كل التنظيمات، أما الآن فهو جزء من منظومة رسمية ولا يمكن لفعالياته أن تنطلق خارج أطرها».

كان محمود مشرفاً على المجلة، ودائم الخلاف مع رئيس الاتحاد على رفع سقف الحرية كي تطاول المسكوت عنه.

في إحدى المرات اقترح موضوعاً أصابنا بالصدمة:

«من المهم أن نناقش دور القنصلية في خدمة الإرتريين، وأن نقارن ذلك بما تقوم به قنصليات الدول الأخرى ولتكن الدول الأفريقية حتى لا يأتي من يتحجج بفارق الإمكانات. دعونا مثلاً نرى إلى أي مدى يثق الإرتريون بها كمرجع يحتمون به في حال تعرضهم لأذى على الأراضي السعودية، ليكن هذا استطلاعاً للرأي»

أراد محمود إكمال مقترحه المدوّن على ورقة صغيرة، لولا تدخل رئيس الاتحاد بعصبية ظاهرة:

«مرفوض.. هل من مقترحات أخرى؟».

بدا للجميع أنه لا يوجّه سؤاله لمحمود في كل الأحوال، فقد كان يجول بنظره بين الأعضاء بعيداً عن مشرف المجلة.. لكن محمود وكعادته لم يستسلم:

«لماذا الرفض؟ فقط أقنعني.. نحن لن نتبنى موقفاً، سننقل صوت الناس للمسؤولين في القنصلية وهذا في منتهى الموضوعية. ربما كان رفضك منطقياً لو طلبتُ منك أن أكتب مقالاً أشرح فيه بؤس ما تقوم به القنصلية، وكيف يهان فيها المواطن بدل أن يجد حاجته».

لم يجد رئيس الاتحاد جواباً مقنعاً خاصةً أنه لاحظ تربص بقية الأعضاء بما أوشك أن يتحول إلى مناظرة محسومة النتائج:

«دعنا نناقش هذا الأمر بعد انتهاء الاجتماع».

لم يكن محمود يكتفي بمثل هذا النصر المعنوي في كل مرة، فقد تمكن فعلياً من زيادة جرعة الحرية في مجلته بشكل لافت، كما أنه رفع من جودة المواد المنشورة فيها بعد أن كان كل من يميّز بين الأحرف يستطيع الكتابة فيها كما يعلّق محمود متهكماً.

هذا الأمر جعله محط أنظار قيادة الجالية التي كانت في صراع مع قيادة الاتحاد، لذا لم يكن رئيس الاتحاد ليفرط في محمود رغم ما يسببه له من صداع مزمن خشية أن تستقطبه الجالية للكتابة في مجلتها.

ظلَّ محمود على الدوام يشعر أنه لم يحقق الانتصار في معركته الأساسية:

«ليس من المنطقي أن تصدر المجلة في بلد عربي، ويكون نصفها بلغة التغرنية، ربما لو كنا في إرتريا سيكون ذلك مقبولاً، الجميع هنا يتحدث العربية ويقضي بها معاملاته، فلماذا إذاً نقحم التغرنية دون حاجة».

«أعتقد أن النشر بالتغرنية يصب في الثوابت الوطنية، حتى يشعر الناطقون بها أنهم ليسوا مهمّشين، وأن المجلة ليست ملكاً لطرف دون آخر».

في الحقيقة لم يكن هذا رأيي، فقد سمعته مرة من رئيس الاتحاد وهو يجيب به أحد الأعضاء، لكنّ محمود وكعادته كان جاهزاً:

«ولماذا لا نرى ما يقوم به الإرتريون في أمريكا وأوروبا خرقاً للثوابت وهم يستخدمون التغرنية وحدها؟ أم أن الثوابت لا تثبت إلا فوق رؤوسنا؟».

بقدر ما كان محمود مختلفاً، كان مخيفاً بآرائه التي يجاهر بها دون حرج، وكان يعتبر كل ذلك ردة فعل على ما يقوم به «الآخرون» تجاهه.

كنت دائماً أقول له إن عيبه الوحيد أنه متطرف في أفكاره، فيرد عليّ أنه وصل لقناعاته هذه بعد تمحيص وتجارب عديدة.

في أحد أيام الجمع قرر محمود أن يتوجه للجالية، كان هذا غريباً فلم يعتد أحد الذهاب إلى المبنى في هذا اليوم باستثناء من تعود لعب القمار على شرف القنصلية التي تجني من وراء تنظيمه أموالاً طائلة.

كان مجرد الحضور في محيط القنصلية مساء الجمعة مدعاة للشبهة، وهو ما جعل مرتادي الجالية طوال أيام الأسبوع لشرب الشاي ولعب الدومينو يعتبرون الجمعة يوم غياب اضطراري، ويستعيضون عنه بالجلوس في البيت أو التوجه لأحد المقاهي القريبة.

محمود كان أحد الرافضين علانية لتخصيص مبنى الجالية للعب القمار، ولهذا توجه إليه في ذلك اليوم رافضاً دفع تذكرة الدخول.

حاول الحراس إقناعه بأن الجمعة مخصص للعب القمار ولا بد من دفع التذكرة، لكنه أصر على عدم الدفع لأنه يريد شرب الشاي وليس لعب القمار.

استمرت محاولات الحراس دون جدوى، فتم استدعاء أحد مسؤولي القنصلية الذي حاول بدوره دون أن يتزحزح محمود عن موقفه.

تم الاتصال بالقنصل الذي أمر بإدخال محمود دون تذكرة تجنباً لتفاعل الموضوع في ظل رغبة القنصلية في إبقاء قضية القمار في حدودها الدنيا حتى لا تثير المشاكل في بلد محافظ.

تجوّل محمود لبضع دقائق في المبنى قبل أن يغادره منتشياً، ودون حتى أن يشرب كأس الشاي التي جاء من أجلها.

صاحبي..

لا تملّ الغناء

فما دمت تنهل صفو الينابيع شق بنعليك ماء البركْ

م. الثبيتي

«هل يمكن أن تحبني أكثر؟»

لا أعرف كم هو عدد المرات التي قرأت فيها رسالة سمراويت التي باغتت هاتفي فجراً.

كنت أغمض عيني لبعض الوقت ثم أفتحها لأعاود قراءتها من جديد، وفي كل مرة كنت كمن يقرأها لأول مرة.

أخيراً قررت الرد:

«وهل أملك غير هذا؟».

لم تترك سمراويت فراغاً في حياتي دون أن تملأه، كان حضورها كافياً كي يستأثر بكل حواسي، وكان غيابها مدعاة للتأمل في كل ما جرى.. وما سيجري.

مع كل صباح كنا نتسابق أينا يصل مودرنا قبل الآخر.

كانت دائماً ما تسبقني إلى المقهى، تطير فرحاً بهزيمتي، بينما لم يكن لدي ما هو أشهى من طعم تلك الهزيمة، لذا وفي كل مرة آتي قبلها كنت أنتظر قرب المقهى حتى تصل فأدخل بعدها راسماً على وجهي علامات دهشة مزيفة.

وككل الصباحات، هزمتني أيضاً هذه المرة.

أصبح الجلوس في مودرنا فعلاً يومياً لا يعرف الملل، كانت سمراويت تجلس في مقابل المارة، بينما أجلس في مواجهتها.. سألتني ذات مرة:

«ألا يستهويك منظر المارة في كمشتاتو؟».

«ليس بعد أن وجدتك.. ملامحك باتت عندي أغنى من كل التفاصيل»

تدخل في صراع مع ابتسامة خجلى تحاول إخفاءها، تتنصر الابتسامة، فتشيح بوجهها، تنسدل خصلات شعرها لتسرد قصة عشق أخرى، يعود وجهها.. تنظر إلي فتجدني أنتظرها عند الحدقات، تشيح ثانية، هذه المرة تطلب مني أن لا أنظر إليها، يأتي جوابي كما كل مرة:

«وهل في عالمي شيء غيرك حتى أنظر إليه؟»

وضع سعيد نهاية للحظتنا الحالمة هذه:

«أتمنى أن لا أكون قد تأخرت عليكما.. العم في انتظارنا».

«على العكس، مواعيدك عسكرية دقيقة»

ابتسم سعيد ابتسامة غريبة، لم تسعفني لأعرف إن كان ما قلته أسعده أم ضايقه.

كان منزل ناود عادياً لا يميزه شيء عن بقية المنازل المتراصة إلى جواره. مبنى مكون من طابق واحد ومحاط بحديقة صغيرة.

وجدنا الرجل السبعيني في انتظارنا وابتسامته تغطي وجهه. قبّل سعيد يده ورأسه، فوجدت نفسي أندفع لأفعل الشيء نفسه دون تفكير، بينما اختارت سمراويت أن تحتضنه طويلاً.

كان في ناود شيء يجعله مألوفاً للآخرين، ملامحه السمراء الوقورة تعود بك إلى عمق سلالات الإرتريين الطيبة، وكأنه غرسٌ نرى فرعه، بينما جذوره ممتدة عبر كل الأجيال.

يتحدث بصوته الخفيض فلا يفقده ذلك هيبة تسري في أجسادنا، تخرج الكلمات من فمه وقد تعطرت بعربية فصيحة، وأدب باذخ، فكرتُ في مقاطعته أكثر من مرة لعلَّه يتوقف عن مخاطبتي بسيدي، لكنه استمر في تواضع أغرقنا في خجل لا ينتهي:

«أهلاً بكم في داري المتواضعة.. وجودكم اليوم زادها قدراً»

لم يكد ينهي جملته هذه حتى اندفعت إليه سمراويت:

«لا تعلم يا سيدي كم أنا سعيدة بفرصة لقاءك.. أنت قامة لا يطاولها شيء.. محمد سعيد ناود اسم أكبر من أن يتكرر كثيراً»

كانت تتحدث وهي ممسكة بيديه، ونظراتها متسمرة في عينيه، بينما ينظر إليها بابتسامة حانية:

«أشكرك يا ابنتي.. الحقيقة مثل هذا الشعور يجعلني أسعى لأكون عند حسن ظن الناس، أما الاسم فقد أصبح عبئاً لأن الإرتريين أينما ذهبت يتوقعون مني الاستمرار في العطاء، ولهذا أنا حريص عندما أتوارى أن يكون ذلك إلى القبر وليس في حياتي».

وددت سؤال الرجل، غير أن سمراويت لم تعد ترى أحداً غير ناود:

«العمر كله.. ما هو الأمر الذي لو لم يكن لديك في طفولتك لما أصبحت محمد سعيد ناود الذي نعرف؟»

تنهد والتفت إلينا هذه المرة:

«المعاناة.. في طفولتي عانيت الكثير، معاناة في جانب التعليم الذي لم يكن متاحاً في تلك الأيام، ومعاناة في شظف العيش إلى حد كبير، لكن في مقابل ذلك كنت محباً للمعرفة ومأخوذاً بالعظماء أمثال المهاتما غاندي.. أعتقد أن مجموع المعاناة وحب المعرفة واتخاذ قدوة ربما جعل مني الرجل الذي يجلس معكم اليوم».

كادت سمراويت تنطق بسؤال جديد لولا أن ناود التفت إلي:

«أقرأ في عينيك سؤالاً».

الحقيقة لم تكن عيني فقط من أوحت له برغبتي في سؤاله، فقد كدت أرفع يدي طلباً للحديث قبل أن تسبقني سمراويت بسؤال جديد

«بصراحة سيدي، يعلم الجميع ما قمتَ به، أريد سؤالك عما عجزت عن تحقيقه»

«كانت أمنيتي الوحدة بين الإريتريين، لو توحدنا لما استمر نضالنا ثلاثون عاماً. أكثر ما حز في نفسي أنني كنت ألهث وأنادي بالوحدة ثم أجد من يركلني. إضافةً إلى الكثير من الأشياء التي أجد مرارتها في نفسي إلى الآن».

لم أتمكن من معرفة تلك الأشياء التي لا يزال ناود يشعر بمرارتها، فقد عادت سمراويت للسؤال وهي تنظر إلي كمن يقول يكفيك ما حصلت عليه.

استمر اللقاء قرابة ساعتين، كان نصيبي منها ذلك السؤال اليتيم، بينما استأثرت سمراويت بالباقي، لم تدع سؤالاً يدور ببالها إلا وأمطرت ناود به، وهو يجيبها دون تذمر. سألته عن الأدب والتاريخ وعائلته، ومستقبل إرتريا، ورأيه في نظام الحكم وفصائل المعارضة، وحتى في كيفية تمضية وقته.

«أجد نفسي في الكتابة، وليس الكتابة من أجل الكتابة فقط أو كهواية، فأنا مهتم بالتاريخ الإرتري، والتاريخ ليس تاريخ الاستعمار فقط، لدينا تاريخ عظيم ويحتاج لكثير من الجهد والتنقيب، فإذا كان الجيل الذي أنتمي إليه لم يكتب وهذا صحيح، وبما أني من القلة المتبقية على قيد الحياة ينبغي أن أكتب شيئاً للأجيال القادمة كي تستندوا إليه كجزء من تاريخكم، لأن الإنسان يفتخر بتاريخه ويعده مصدر إلهام، وهذا الجانب مفقود في إرتريا»

انتهى اللقاء، ولم ينته أثره في نفوسنا، وخاصة سمراويت التي كانت في حالة نشوة كبيرة، حتى أنها قامت أكثر من مرة بشكر سعيد الذي كان شارد الذهن بعض الشيء، سألته فتهرب بداية قبل أن يجيب أخيراً:

«بقدر ما كان العم ناود يتحدث عن المستقبل، كان الموت حاضراً في كلامه، وكأن هاجسه أن يسبق الموت إلى مشاريعه المؤجلة، قبل إعلان هزيمته».

قلتُ يا امرأةً

خذي ملءَ حزنك من رعشتي

رتبي وحشتي..

م. الشيخ

انتهيت من عملي سريعاً هذا اليوم، فالجمعة عادة يوم قليل الدسم في الصحافة السعودية، كما اعتدنا أن نسميه.

بعض شباب الجالية يمضون مساءات الجمعة في «الحلمية» القريب من القنصلية. هذا المساء انضم لنا أحمد لأول مرة وكان العدد كبيراً.

الحلمية، مقهى مصري شعبي، لكنه يتحول مساء الجمعة إلى منتدى إرتري يضج بالآراء والتوجهات المختلفة. طاولة للكهول، وأخرى لمن هم أصغر قليلاً، طاولة مجاورة للشباب المنضمين للشعبية، وليس بعيداً عنها طاولة لشباب يكرهون الشعبية، ثم طاولتنا التي تضم مزيجاً من كل ذلك.

محجوب وحده من يتنقل بين كل الطاولات، يمازح هذا ويزعج ذاك، وينتقد بشراسة دون أن يصل به ذلك ليكون مكروهاً من أحد. كان الوحيد الذي يتحدث التغري معنا، وكنت أظن ذلك بسبب حداثة وجوده في السعودية قبل أن أعرف أنه فقط يستمتع بها.. حتى في جدة.

تدور أحاديث طاولتنا حول مواضيع عديدة من الرياضة إلى

السياسة والفن، لكنها في النهاية لا بد أن تستقر على الوطن بموضوع ساخن.

هذا المساء كان مختلفاً إذ بدأ ساخناً على غير العادة:

«هناك أنباء اليوم عن وفاة مجموعة من الشباب عطشاً أثناء هربهم إلى السودان».

كان محمود يتحدث وهو ينظر إلى رئيس اتحاد الشباب. هنا تدخل محجوب:

«الهرب من الموت إلى الموت».

أحس رئيس الاتحاد أنه معني بالرد:

«رحمهم الله، هذه نتيجة الهروب من الوطن من أجل بضعة جنيهات».

كانت هذه الجملة كافية كي تغضب محجوب:

«بل نتيجة القمع والتسلط».

أعاد محمود ظهره إلى الكرسي وكأن جملة محجوب شفت غليله وأدّت الواجب. كان أحمد يستمع، بينما لم يأت رد من رئيس الاتحاد.

يعرف الجميع قصة محجوب جيداً، فقد وصل إلى جدة مؤخراً بعد رحلة شاقة قطعها من قِنْدَع إلى الحدود السودانية، لذا لم يكن من اللائق أن تتم مناقشته في هكذا موضوع، وهو ما تنبه له رئيس الاتحاد فآثر الصمت.

أذكر تلك الليلة التي قص فيها محجوب حكايته علينا. كان عددنا أكبر، وفي المقهى نفسه.

«جهدت حتى استطعت جمع المبلغ المطلوب، ألفا دولار نقداً وعداً يُدفع نصفها مقدماً بينما النصف الآخر على الحدود السودانية. حين حان موعد مغادرتي قبّلت رأس والدتي ومضيت. لم أستطع حتى أن أعدها بشراء بقرة أخرى عوض التي باعتها كي تكمل ما معي.

كان يجب عليَّ بدءاً السفر بالباص إلى تَسَني القريبة من الحدود السودانية، لألتقي السمسار الرشيدي الذي سيهربني إلى السودان. كان الطريق مليئاً بنقاط التفتيش التي تدقق في سبب الذهاب إلى تَسَني، ولهذا كنت أحمل أوراقاً مزورة حصلتُ عليها من الوسيط تفيد بأنني أحد أبناء المدينة.

وصلتُ إلى المدينة مع غروب الشمس، كانت الخطة تقضي بأن أمضي عدة أيام من التجوال في المدينة والتردد على مقاهيها إبعاداً للشبهة، إلى أن أتلقى إشارة ما.

في أحد الأيام وأنا جالس في المقهى، مر بجواري رجل طلب مني أن أتبعه من بعيد. ظل الرجل يسير دون أن يلتفت وأنا أسير خلفه حتى وصلنا إلى منطقة نائية، هناك توقف حتى لحقت به، ودون أي تفاصيل أخبرني أن رحلتي مع الرشيدي ستبدأ الليلة بعد الغروب من هذا المكان.

في الموعد المحدد جاء الرشيدي بسيارة دفع رباعي متوسطة الحجم ولها صندوق خلفي وعلى متنها شخصان آخران عرفت في ما بعد أنهما مثلي ينويان الهرب.

كانت السيارة تسير قليلاً ثم تتوقف لتحمل شخصاً جديداً حتى بلغ عددنا اثنا عشر شخصاً. وقتها أخبرنا الرشيدي أننا في طريقنا إلى الحدود السودانية وطلب منا أن لا نصدر ضجيجياً طوال الرحلة، وفي

حالة انكشاف أمرنا طلب أن نتفرق في مختلف الاتجاهات حتى نصعّب مهمة القبض علينا.

بحكم أني كنت من أوائل الراكبين فقد كنت في المقصورة الأمامية للسيارة بينما تكوم آخرون في الصندوق الخلفي. كان الرشيدي يجري اتصالات متكررة بأشخاص مختلفين ليسأل عن حالة الطريق، والظلام يلف كل شيء إلا من أضواء سيارتنا المسرعة. لكني كنت ألمح بين الحين والآخر ضوءاً خافتاً من بعيد في الطريق نفسها الذي نسلكه، عرفت في ما بعد أنها سيارة أخرى تمهد طريقنا.

بعد ساعة ونصف من السير توقف السائق عند منطقة كثيفة الأشجار، وأمرنا بالنزول، كان بانتظارنا رشيدي آخر يسوس ثلاثة جمال يجمعها حبل واحد وتتدلى من كل واحد منها أربعة حبال.

«انتهت مهمتي هنا.. سيقودكم هذا الرجل حتى السودان»

«كيف؟» قالها أكثر من واحد في الوقت ذاته.

«كنا نظن أننا سنواصل سيرنا إلى السودان بالسيارة وليس بالجمال». أضاف آخر

كنت أفكر في أمر آخر:

«كيف لثلاثة جمال أن تحملنا جميعاً؟»

ضحك الرشيدي لسؤالي قبل أن يجيب صاحب الإبل:

«ومن قال إنكم ستصعدون على الجمال؟، أنتم ستمسكون بهذه الحبال المتدلية والجمال ستقودكم إلى وجهتكم. هيا أمامنا مشوار طويل»

«لم يكن أمامنا خيار آخر».

يتوقف محجوب قليلاً عن سرد قصته. نتوقف معه عن تخيل

المشهد لنلمح عبرة تتشكل في عينيه. نطلب منه ألا يواصل. نتمنى في داخلنا أن لا يستجيب. تنتصر أمنيتنا أخيراً.

«انهال الرشيدي بسوطه على الجمل الذي يركبه، فانطلق مسرعاً ومعه الجملان الآخران، بينما كنت أجاهد كي لا تفلت الحبال من إحدى يدي، أو تسقط أمتعتي من اليد الأخرى، وكان هذا حال البقية.

أمضينا ساعات من الركض المنهك، ولم يكن الرشيدي يتوقف لأخذ الراحة إلا بعد تكرار رجائنا، ثم ما يلبث أن ينطلق من جديد.

لسبع ليال كاملة كنا نقضي الليل بطوله تقريباً ونحن نركض إلى جوار الجمال المسرعة، ولا نتوقف تماماً إلا مع طلوع الفجر لننام كالقتلى تحت إحدى الأشجار الكبيرة أو داخل إحدى الكهوف المتناثرة في بطون الجبال. وما إن يحل الغروب حتى يبدأ الركض مجدداً بلا نهاية.

لم أعد أشعر بقدمي التي ملأتها الشقوق، لكني كنت أحسن حالاً من الآخرين، أحد الذين كانوا معنا لم يعد قادراً على المشي، ثم ساءت حالته حين أصابته الحمى. رجونا الرشيدي أن يحمله على أحد الجمال، رفض في البداية قبل أن يوافق أخيراً على مضض.

في منتصف الليلة السابعة. أشار الرشيدي إلى مصدر ضوء بعيد:

«هذه السودان. . انتهت مهمتي هنا. . هاتوا الألف المتبقية»

كاد التعب يقتلني، فكرت في المبيت ومواصلة السير نهاراً غير أن الرشيدي أخبرني أن هذه المنطقة تشهد دوريات كثيفة من حرس الحدود الإرتري.

سلّمت الرشيدي ماله وهممت بالمسير قبل أن ألحظ حواراً غاضباً يدور بينه وبين أحد الهاربين.

كان الشاب قد فقد متاعه أثناء الطريق ومعه نقوده. أخذ يحلف بأعز ما لديه أنه سيعطي الرشيدي ما اتفق عليه بمجرد وصوله إلى السودان، لكن الرشيدي كان صارماً في رفضه. وكان الحل صاعقاً

«ستظل معي حتى يقوم أهلك بتسليم المبلغ لجماعتي في البلاد».

كانت كلمة «معي» غامضة بعض الشيء حتى جاء التوضيح سريعاً:

«لدينا مكان قريب من هنا عادة ما ينتظر فيه أمثالك حتى يدفعوا ما عليهم»

لم تنجح محاولاتنا في ثني الرشيدي عن قراره، ولم يكن معنا ما يكفي لندفع عن صاحبنا. حاولنا أن نفك الشاب بالقوة لكن الرشيدي أشهر مسدسه في وجوهنا قبل أن يقتاد الشاب إلى وجهة غير معلومة.

في ما بعد علمنا أن المهربين الرشايدة كانوا يحتفظون بالشباب كرهائن في معتقلات عبارة عن حاويات حديدية قرب الحدود السودانية، حتى تتمكن عائلاتهم من دفع ما عليهم»

«الله يلعنكم يا أحباش»..

بهذه العبارة استقبلنا حرس الحدود السوداني، بينما كان أحد الضباط يستمتع بصفع من يمر إلى جواره. وقبل أن نتكدس في شاحنة كبيرة لنقلنا إلى معسكر «الشجراب»، كانت كل أمتعتنا قد سُلبت بحجة التفتيش.

وضعت رأسي على «العنقريب». أحسست أن عمراً من المعاناة انتهى. إلى جواري يتمدد عشرات اللاجئين، لابد وأننا في هذه اللحظة نتقاسم ذات الأمان. أغمضت عيني خوفاً من تسرب هذا الشعور، ورحت في نوم عميق.

صدئتْ لياليك القديمة فاحرقي خَبَثَ النحاسِ
واشرعي زمن الصهيلْ

م. الثبيتي

انتصف النهار فاقترحت سمراويت أن نتناول الغداء في منزلها. اعتذر سعيد متعللاً بمشاغله لكنها أصرت:

«ستكون فرصة لتتعرف إلى والدتي، صحيح أنها لبنانية، لكنها عاشقة لأسمرا»

لقاء ناود أزال التوتر بين سمراويت وسعيد، وهو أمر أراحني كثيراً، وكفاني مؤونة تلطيف الأجواء بينهما مع كل موضوع يناقش..

أشار سعيد إلى إحدى سيارات الأجرة، وقبل أن نركب اعترضنا شاب ثمل وأخذ يغازل سمراويت بلهجة جداوية واضحة، لكن سعيد تصدى له:

«علي، دع الفتاة وشأنها وإلا سلمتك للشرطة»

ابتعد الرجل وهو يوجّه شتائم بالتغرنية لسعيد الذي تجاهله تماماً. طوال الطريق وأنا أفكر في علي، كاد الفضول يقتلني لأعرف قصته. انتظرت أن يبادر سعيد بإخباري، لكنه لم يفعل.

كان والد سمراويت يمتلك شقة قرب المطار في مجمع مشهور معظم ملاّكه من المغتربين، وهو ما انتبه له سعيد:

«ألا يخشى والدك أن تصادر الحكومة شقته؟»

«الشقة مكتوبة باسم أحد أقاربنا، لذا لا خوف من ذلك، وإن

كنت أعتقد أنهم يعلمون بالأمر، كما يعلمون بوجودنا، لكننا لسنا هدفاً لهم في ما يبدو».

استقبلتنا والدة سمراويت بترحاب بالغ، قبل أن تتركنا لتجهيز الغداء:

«أعددتُ لكم طعاماً لبنانياً، وإن كنت أعرف أنني لن أستطيع مجاراة الزقني»

كان تصميم الشقة لافتاً، امتلأت الجدران بالصلبان وصور المسيح، وتناثر الأثاث الفخم، وهو ما جعل سعيد يجول بنظره والدهشة تغطي وجهه..

«كل هذا الأثاث جلبته أمي من باريس قبل عامين. لم تشتر قطعة واحدة من أسمرا، فكرتْ أنها بذلك قد تطرد عنها الشعور بالغربة في بلد تزوره للمرة الأولى آنذاك. لكنها الآن مدمنة على أسمرا»..

كانت سمراويت تتحدث عن بذخ والدتها دون أن تتنبه إلى وجه سعيد الذي كان يتفادى النظر إليها وكأنه ينفث غضبه الحارق بعيداً عن صاحبة الدار..

خشيتُ أن يتجدد خلافهما في المكان والزمان الخاطئين. لكن خشيتي سرعان ما تلاشت حين رسم سعيد على وجهه ابتسامةً مصطنعة وهو يشيد بتصميم الشقة، خاصة بعد حديث سمراويت عن مرض أمها:

«مشكلة أمي الوحيدة هنا عدم توفر أدوية القلب الذي تعاني منه، لذ تضطر إلى جلب كميات كبيرة منه في كل زيارة تحسباً لكل طارئ، هذا ما يجعلنا جميعاً نعاملها بطريقة خاصة، بحيث لا نثير غضبها، خشية تفاقم وضعها الصحي»

بعد الغداء كان لا يزال فضولي يلح عليّ لمعرفة حكاية علي..
أخيراً سألت سعيد، لتأتي إجابته:

«قصة علي يعرفها كثيرون هنا فهو جداوي مثلك، ولد ونشأ في جدة لكن مساره كان مختلفاً بعض الشيء، فقد كان ممن تطلقون عليهم هناك المطاوعة، كان متحمساً ومندفعاً حتى إنه تطوع في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأصبح يشارك معهم في دورياتهم اليومية للحث على الصلاة ومطاردة المتخلفين عنها..

في أحد الأيام كان ضمن دورية للهيئة متجهة لمداهمة منزل تقام فيه حفلات ماجنة، تم القبض على مجموعة من الرجال والنساء، لكن سرعان ما قدمت دوريات للشرطة وطوّقت المكان، كان المنزل لأحد النافذين..

أخلت الشرطة سبيل المجموعة واحتجزت أعضاء الهيئة بدلاً عنهم قبل أن يتم إخلاء سبيلهم ما عدا علي الذي تم تحويله إلى قسم الترحيل ومنه إلى أسمرا..

كان هذا منذ خمس سنوات، ومن ذلك الحين وحال علي كما رأيتها، كفر بكل ما كان مقتنعاً به وانتقل من النقيض إلى النقيض»

التفتت إليّ سمراويت والذهول يغطي وجهها..

كنت مذهولاً مثلها وإن كان شيء ما بداخلي لم يتفاجأ كثيراً بما حدث لعلي. وضعتني الحكاية وجهاً لوجه مع جدة..

لم أستطع المراوغة والإفلات من هذه المواجهة الصفرية التي مهما تعددت صورها فنتيجتها محسومة سلفاً بخسارة الطرفين..

كنت أتحاشى مشهد تهشم صورة هذه المدينة الحلم، فالمدن مثلنا تماماً، تعيش على صورتها لدى الآخرين.

هل تغيرت جدة؟!

لكنها جدة التي لا ينبغي لها أبداً أن تحيد عن موقفها، عن قرارها الأزلي في الانحياز لكل ما هو جميل..

لم تكن جدة مجرد مدينة حتى تستسلم بهدوء لعوامل التعرية التي تطال أعمق ما في المدن، كانت بمثابة الحاضنة لتشكل وعينا ووجداننا وحتى ذاكرتنا..

لم تكن جدة «مكاناً والسلام»، يلم شعث تشردنا بعد أن انتقلت إرتريا من الجغرافيا إلى حواف الذاكرة..

لم تكن هذه المدينة موطن آخرين يسبغون علينا الفضل حين يبقوننا في أطرافها النائية، كنا ناسها الذين يشبهونها حد التطابق..

«شكلك جداوي»..

كثيراً ما سمعت هذه الملاحظة بمجرد أن أنطق، لم تكن جدة لتحتاج أكثر حتى تتبدى في لغتي وفي نبرة صوتي بل وفي ابتسامتي..

«مين فين الأخ؟»..

«من النزلة»..

مرّ عمر كامل، وأنا أجد هذه الإجابة مكتملة الأركان، فهي تعرض جغرافيتي وتاريخي وحتى مزاجي لأن «عيال النزلة ذوق» كما يأتيك الرد حين تعرّف بنفسك.

في النزلة كان عثمان محيسن هو الواد «الحرّيف». وحده يوصلنا للنهائي قبل أن يصاب فنخسر الكأس. قلة كانت تعرف أن اسم عائلته هو مهري وأن محيسن التصقت به لفرط شبهه الكروي بمحيسن الجمعان نجم المنتخب السعودي.

وكان النحيل عمر النملة هو الواد «الأهيم» الذي يلوذ به العيال حين يتعرضون «لحرش» حارة مجاورة. كان عادة لا ينزلق «لمضاربة» أحد بل يكتفي بسطوته لرد الاعتبار.

وفي النزلة كان إبراهيم «المطبخي» هو الأول على تلاميذ جدة. حقيبته العامرة بالسندوتشات ألصقت به هذا اللقب. مشكلته الدائمة أنه لا يحسن لبس الغترة والعقال حين يشارك باسم جدة في المسابقات العلمية على مستوى المملكة.

لم يكن هؤلاء وغيرهم من الإرتريين يعرفون لهم وطناً آخر غير النزلة..

«ايش معنى هلّاني؟»

«الله يخرب بيتك من فين جبت هذي الكلمة»

«اتصلت على بيتكم أسأل عنك ردّت جدتك»

«واضحة.. يعني ماني موجود»

أقولها بحنق، فيبتسم رياض بمكر، فقد كانت هذه إحدى طرقه لزيادة حصيلته اللغوية من المفردات الإرترية. كان يصدّع رؤوسنا بكل كلمة جديدة يتعلمها:

«طيب لو قالت كفوليكا.. ايش أقلّها»

«قلّها الحمدلله سني هليكو»

مرّت أعوام بعد انتقال رياض من النزلة، وجدتي لا تزال تسألني عن ذلك الشاب السعودي الذي يتقن لغتنا.

مثله كان عمر المعلم، وفتحي القرد، وخالد سلمان وغيرهم من السعوديين الذين انصهرنا معهم في النزلة دون أن نشعر أن ثمة فرق.

«جارنا عبده سيهاجر إلى لندن، ما رأيكِ أن نهاجر نحن أيضاً»

لا زلت أذكر ذلك اليوم في أوائل التسعينيات حين عرض والدي فكرة مغادرة جدة، فجاء رد أمي دون تفكير

«إلاّ عد تحيشنا». .

ما فتئنا بعد ذلك ونحن نذّكر أمي بمقولتها تلك، لنرى هل لا تزال تعتقد أن جدة هي الأفضل لنا؟ فلا يأتي الجواب مختلفاً:

«إلاّ عد تحيشنا». .

الغريب أن كلمة «عد» في التغري تأتي بمعنى بلد وتأتي بمعنى أهل. لا أعرف إن كانت أمي تقصد أحد المعنيين أو كلاهما معاً.

لكن ما الذي جرى «للعد»؟

هل تضخمت جدة بحيث غابت ملامحها الأصلية تحت وطأة تفاصيل طارئة تشعبت كثيراً حتى غدت هي الأصل؟

هل من الطبيعي أن يهاجر محيسن إلى بريطانيا بعد أن ملّ انتظار ضمه للنادي الأهلي؟ وأن يهاجر المطبخي إلى أمريكا حين لم تشفع له درجاته العليا في وجود جامعة سعودية تقبل به؟

هل من الطبيعي حتى أن يفقد النملة هيبته في الحارة، ليغدو أحد الأجانب وحسب؟

قد يبدو هذا طبيعياً لمن لا يعرف النزلة. . لمن لا يعرف جدة.

أمعنتْ جدة في القسوة على أبنائها، حولتهم إلى مجرد أجانب، هذه الكلمة التي أعادت رسم خطوط الطول والعرض حول كل مقيم، بحيث أدرك بعد كل هذا العمر أنه لم يكن سوى أجنبي طارئ.

أجنبي تتقزم آماله حتى تنحصر بحياة عادية لا مكان فيها للمفاجآت بنوعيها السار ونقيضه.

لم نعد نرى رياض إلا لماماً، ومثله المعلم والقرد وسلمان. . لم نكن وحدنا كإرتريين في ما يبدو من تأثر بخطوط الطول والعرض التي أعادت رسمها جدة.

لم يخرجني من استغراقي إلا صوت والدة سمراويت، تسألني عن عدد ملاعق السكر في قهوتي.

أحتاج دوزنةً

تفك حبالكم عني

وتربطني بكم . .

م. الشيخ

«عندي سؤال حارقني . . بس خايف تزعل» . .

«لا أبداً. تفضل» . .

«انت كيف صرت صحفي؟» . .

أكاد أجيب جاري مسعود . . لكنه يباغتني بتكملة للسؤال:

«يعني معليش . . انت ما درست جامعة وطول عمرك معانا في الحارة . . كيف فجأة يعني . . ؟» . .

تكرر هذا الحوار كثيراً بصور مختلفة حتى فقد جانبه الذي يغيظ، بل تحول مع الأيام إلى شيء مسلّ، خاصة بعد ما صرت أتفنن في الرد على من يصفعني به.

أحد أصدقاء الدراسة لقيني بعد أعوام، وحين أخبرته أني أعمل في صحيفة لم يوصله خياله لطبيعي عملي:

«طيب مو تعب عليك توزع جرايد؟» . .

«والله خليها على الله أكل العيش مر» . .

يواصل أسئلته وأواصل حبس ضحكة تصيبه بالصمم لو انفلتت. وقبل أن يغادر:

«أبغى أعمل اشتراك.. تقدر تجيب لي تخفيض؟».

كنت عادة أحمل هذه المواقف طازجة إلى أحمد رفيقي في «الكاك» كما يسمي الجداويون الضحك بصوت عال، فيقوم بدوره بإضافة بهاراته اللاذعة حتى يتضخم الموقف فيغدو مسرحية هزلية تستهلك يومنا كله.

كنت أتعمد أن لا أذكر لأحمد اسم صاحب الموقف، ولا أي تفاصيل تقود إليه حتى لو لم يكن يعرفه، فعادة ما تتوسع دائرة المشاهدين لمسرحيات أحمد حتى أخشى أن تصل يوماً لصاحب الموقف نفسه.

ومع حالة الكاك الطاغية، كان لا يزال شيء ما يحرقنا سوياً، هذا ربما ما يجعلنا نمعن في الانتقام منه بتلك الطريقة.

لم يكمل أحمد دراسته الجامعية في الهند بسبب ظروفه المادية، فعاد خالياً إلا من رغبة عارمة في أن ينتقم لذاته. وكنت أحمل الرغبة نفسها بشكل مضاعف.

تدرج أحمد في وظيفته حتى أصبح مديراً لأحد فروع شركته، لكنه لم يشف تماماً من رغبته:

«ما أعرف ليش كل ما حققت شيء أحس إنو مو كافي»

في إحدى أمسيات الحلمية كنا على موعد مع حكاية صادمة.

بعد أن شرّق الحديث وغرّب، اتجه صوب الدراسة الجامعية، كنّا مجموعة من سبعة أو ثمانية أفراد. ابتدأ أحد الحاضرين بالحديث عن منحته الجامعية في مصر مستعرضاً ما لها وما عليها، تلاه آخر عن تجربته في سوريا، ثم جاء الدور على الأردن وقطر وماليزيا والهند.

«دقيقة بس.. ممكن تخبروني كيف أخذتو هذه المنح.. لأننا تقريباً نفس الدفعة.. وأنا حفيت ما لقيت منحة»

«صحيح.. كيف؟»..

كنت كأحمد متحرّقاً لأعرف.

«واحد من جماعتنا كان في البنك الإسلامي اتصل على ابويا وقال عنده منح»..

«بس أنا رحت البنك الإسلامي مية مرة وما لقيت منحة» صرخ أحمد، لكن المفاجأة ألجمته وألجمتني حين جاء الجواب:

«طبيعي.. البنك الإسلامي أخلى مسؤوليته لما أعطى المنح للراجل هذا عشان يوزعها على المتفوقين من جنسيته.. غريبة ما كان عندك أحد من جماعتك؟»

.. ..

«ولا في الندوة العالمية؟»..

. .. .

«ولا في القنصلية؟»..

لم يكن «واحد من جماعتنا» في كل تلك الجهات التي قُدّر لها أن تلتفت للإرتريين.

لم أنم ليلتي تلك.. وكذلك فعل أحمد.

طوال الليل كنت أسترجع كل ما عانيته، تلوح لي صور إرتريين كان بإمكانهم إنهاء تلك المعاناة لكنهم لم يفعلوا لمجرد أني خارج حسابات المناطقية والقومية.

«أعرف واحد أعطى منح لعائلة كاملة من جماعته أولاد على بنات وبعضهم حتى ما كمّل دراسته». .

جملة أحدهم، تحمل وقع الوجع الأول كل ما استعدتها.

تذكرت مشواري الطويل قبل أن أحمل شهادتي الثانوية وأطوف بها بحثاً عن منحة جامعية.

كانت لي حقيبة جلدية بنية اللون، وحذاء رياضياً أمسحه كل يوم خشية أن يبهت بياضه. أتناول فطوري على عجل وأرتدي ثوبي الأبيض.

كان كل شيء أبيضاً قبل أن أتحرك.

«ها فين ح نروح اليوم؟». .

لا تجيب أمي، لكنها عوض ذلك تعيد على مسامعي نصائح حفظتها تماماً:

«إذا سجلوك اليوم ركّز مع المدرس، لا تسرّح، لازم تفهم دروسك، لا تمش مع الناس البطالين. . سمعت يا عمر»

نسير إلى جانب أفواج من الطلاب تتجه نحو سعيد بن جبير، كنت الوحيد ترافقه أمه. .

«أمي خليني أروح لوحدي أنا أعرف الطريق».

على أبواب المدرسة يدخل الطلاب، ونبقى بانتظار انتهاء طابور الصباح، أقف على الباب أتأمل تمارينهم. . نشيدهم. . كلمة الصباح:

«والآن مع الطالب. . .»

يبدأ الطلاب في دخول فصولهم، أتبعهم بنظري واحداً واحداً، تخلو الساحة، يرن جرس، يعم الهدوء. . إلا داخلي. .

«يلا خلينا ندخل للمدير». .

تسلّم أمي، فيأتيها رد جاهز:

«يا ستي مو خبّرتك أمس. . نسبة الأجانب عندي اكتملت»

«الله يخليك، والله حرام الولد صار عمره سبعة سنين حرام تروح عليه الدراسة»

يشيح المدير بوجهه، لكنها تواصل الاستجداء حتى يأتيها رد أخير بلهجة غاضبة:

«لو سمحتِ». .

تكرر أمي محاولتها مع بلال بن رباح، والبيروني، ثم القادسية فلا تخرج بنتيجة مختلفة.

نعود إلى البيت وقد أنهكني السير. أعيد حقيبتي الفارغة إلى مكانها، أمسح حذائي وأستعد للعبتي اليومية. .

كان الطلاب يعودون إلى بيوتهم وقت الظهيرة، ليضعوا حقائبهم ثم يخرجوا للعب في الحي، كنت أفعل مثلهم.

أحدهم باغتني مرة بعدما قلت له إنني في الصف الأول الابتدائي:

«كم حصة عندكم؟»

لم تكن هذه الكلمة قد انضمت إلى مفرداتي المحدودة، جازفت بأول رقم خطر على بالي:

«ثلاثة»

«يا كذاب». .

أخيراً جاء الفرج. هكذا ظنت أمي، فقد أخبرتها إحدى جاراتها

أن الفرصة متاحة للالتحاق بمدرسة مجاورة، قبل أن تدرك أن الفرصة لم تكن سوى مدرسة ليلية لمحو الأمية..

«معليش حبيبي الدراسة ما راح تكون في الصباح.. أبغاك تنتبه على نفسك وما تتكلم مع أحد.. أي واحد يسوي لك شيء كلم المدير على طول وكلمني»

لم يكن شيء يملأ قلبي سروراً كرؤية حقيبتي وقد امتلأت أخيراً بعد طول فراغ، لكني كنت مضطراً إلى كذبة جديدة.

كنت مواظباً على تقمص دور الطالب العائد من مدرسته وقت الظهيرة، حتى إذا جاء المساء حملت حقيبتي الثقيلة وتسللت سالكاً شوارع لا يقصدها رفاقي باتجاه مدرستي الليلية..

عامان بعد ذلك، واصلت فيهما اللعب ظهراً.. والكذب كذلك.

وافقت من تعب القرى فإذا المدينة شارع

قفر ونافذة تطل

على السماء

م. الثبيتي

يوماً بعد آخر كانت علاقتي بسعيد تتوطد. كل شيء كان مهيأ لنذهب بعيداً حد الالتصاق، فقد كان سهلاً منبسطاً، لكن داخله أعمق من أن يطال.

سألته ذات مرة إن كان يشعر بالندم، نظر إليَّ نظرته الحادة وكأنه يستوضح سؤالي..

«بشكل عام هل تشعر بالندم؟»

كنت أكذب، لم يكن هذا سؤالي، في الحقيقة كان نصف السؤال، احتفظت بنصفه الآخر في داخلي، وددت لو سألته إن كان يشعر بندم على فقدان ذراعه بعد هذه الأعوام من تحقيق الاستقلال، لكني خشيت من نظرته تلك، لم أتعوَّد عليها، رغم أنه لا يملك غيرها..

«كل إنسان لديه ما يندم عليه، المهم أن لا يتحول ذلك إلى قيد يعيق نموه»

محيرة هذه الإجابة، هل يتهرب من الإجابة، أم يمهّد الطريق كي أتوغل فيه أكثر؟

«وأنت.. على ماذا تندم الآن؟»..

ضغطت على كلمة الآن، وكأني أقلل من فرص الهروب أمامه. إطراقه في الأرض منحني شعوراً بقربي مما أريد..

«لا أعرف إذا كان هذا ندماً، لكني تمنيت لو لم ننحرف قليلاً عن أهداف ثورتنا»

أزال جوابه كل جمل الاستهلال والتوطئة، وضعني مباشرة حيث أريد، بدت فرصتي مكتملة كي أخوض نقاشي المنتظر معه:

«إذاً أنت تتمنى لو لم تقاتل في سبيل الاستقلال، خاصة وأنك فقدت جزءاً منك لا يمكن تعويضه»

«لا يا عمر. ليس إلى هذا الحد، لا يندم مقاتل على فكرة الحرب، ولا يمكن لفقد مهما عظم أن يزحزح عقيدته العسكرية. كل ما في الأمر أنه يتمنى بعد انقشاع الغبار لو تتطابق غايته مع ما تحقق بالفعل. إرتريا التي قاتلنا من أجلها لم تكتمل ملامحها، وهذا ما قصدته بالانحراف عن أهداف الثورة»

«أنت تحيرني يا سعيد، من جهة تدافع عن النظام وتصف المعارضة بالبائسة، ومن جهة أخرى تعتقد أن الثورة انحرفت عن مسارها. أين تقف بالضبط؟»

«تعال معي»..

أخذني إلى فندق كرن، وهو فندق إيطالي في أحد الشوارع الجانبية لكمشتاتو.

«ربما من الضروري أن تقترب أكثر لترى تفاصيل الصورة الكبيرة»

لم أفهم تماماً ما يعنيه سعيد، إلى أن قصدنا مجموعة من أربعة

أشخاص في بهو الفندق، كان أحدهم من قيادات الصف الأول في الحزب الحاكم، بينما الآخرون وزراء في الحكومة.

كان لافتاً حجم ترحيبهم بي، أحدهم كان ينوي القيام كي أجلس مكانه، حتى اعتقدت أنهم ظنّوني شخصاً آخر. انخرطت سريعاً في حواراتهم، تحدثنا حول أمور كثيرة: الصحافة، السياسة، وحتى الرياضة، لم أشعر للحظة أنني أمام مسؤولين بهذا القدر من الأهمية.

دار الحديث حول كرة القدم، كان المسؤول الحزبي يرى أن مانشستر هو أفضل فريق في العالم، بينما كان رأيي أن برشلونة هو الأحق بهذا اللقب

«برشلونة كان جيداً زمن العبقري مارادونا، هذا اللاعب لن يتكرر، هل شاهدت هدفه في إنجلترا في كأس العالم عام اثنين وثمانين، كان إعجازاً بحق»

وافقه البقية، بينما توقفت عند معلومة بدت لي غير صحيحة:

«عفواً تقصد عام ستة وثمانين، كان ذلك في المكسيك»

«لا. لا.. كان ذلك عام اثنين وثمانين أنا متأكد»

كنت بدوري متأكداً، غير أن ثقته زعزعت ثقتي في معلوماتي، قبل أن يكمل:

«تراهن؟.. بألف نقفة»..

بدا الأمر مسلياً للحضور الذين علت صيحاتهم، فلم أجد بداً من الموافقة على الرهان..

أجرى المسؤول اتصالاً بشخص قال إنه موسوعة رياضية، في هذه الأثناء مال علي أحد الوزراء وهمس في أذني:

«من الأفضل أن تنسحب من الرهان»

ظننت أنه يخشى علي من الخسارة فأخبرته أنّ الألف نقفة والتي تعادل خمسة وعشرين دولاراً ليست بالأمر الجلل، لكنه أصر على طلبه، فانسحبت. .

اكتشف المسؤول صحة معلومتي فأخذ يلومني طوال اللقاء:

«لو لم تنسحب لحملت معك الآن الألف نقفة»

قبل أن نغادر مال علي الوزير نفسه، لكن هذه المرة ليهز وجداني:

«كنت أعرف أن رهانك صحيح. . لكن سامحني، كم ألف نقفة تعتقد في مرتبه حتى يفقد مبلغاً كهذا ؟».

ساد الصمت طوال الطريق إلى مودرنا، كنت مصدوماً بحيث لا أستطيع تحليل ما جرى، فهم سعيد ذلك فمنحني ما أحتاجه. كان رأسي متخماً بالأسئلة، ما هذا ؟، كيف؟، ولماذا؟

للحظة خطر ببالي أن ما جرى كان مسرحية دبرها سعيد وأتقن أداءها أولئك المسؤولون، إذ كيف يعقل أن يكون هؤلاء القوم بهذا القدر من القرب. . من التواضع؟

كيف لمسؤول من الدرجة الأولى أن يكون عادياً إلى هذا الحد، أن تتمكن بضعة دولارات من هز وضعه المالي؟ هل يحدث هذا في مكان آخر غير إرتريا؟

«هذه هي الثورة يا عمر، تنزع زوائدنا، فلا يحجب خصالنا الطيبة شيء. هؤلاء كانوا في مقدمة الصفوف طوال البحث عن إرتريا، كانت أراوحهم آخر همهم، لذا حين جاء الوطن، لم تتغير هذه الطباع النقية.

كان بمقدورهم كما ترى أن يعيشوا كالملوك وأن يستفيدوا من مناصبهم لتكوين ثروات طائلة كما يفعل كثيرون من القادة الأفارقة في بلدانهم الفقيرة، لكنهم يخجلون. هل تعرف هذا يا عمر؟ يخجلون من رفاق نضالهم الذين مضوا. . يخجلون من الأمهات الحزانى، والنساء الثكالى. . يخجلون حتى من ثورتهم أن تتلطخ وهي التي بدأت واستمرت نقية»

«لكن إذا كان الوضع كذلك، أين الخلل؟ ولماذا ترى ويرى كثيرون أن الثورة لم تحقق كل أهدافها؟»

«هنا أساس المشكلة. للثورة عمر افتراضي لا بد بعده أن تتنحى مع بقاءها رمزاً ومرجعية ومصدر إلهام، لتجيء محلها الدولة الحديثة، دولة القانون والمؤسسات، وهذا ما ينقصنا في إرتريا، نحن بحاجة إلى الانتقال من الشرعية الثورية إلى الشرعية الدستورية، أسوة بمعظم دول العالم»

«إذاً أنت تتفق بل وتتطابق مع مطالب المعارضة؟»

«الفرق بين رؤيتي وما تنادي به المعارضة في معظمها هو أني مع الإصلاح من الداخل وليس مع إسقاط النظام، لا أعتقد أن إرتريا ستكون أفضل مع من قضوا عمراً في الغرب يقتاتون على بقايا موائده، أتمنى أن يقوم الثوار بتحقيق هذه المطالب مع ما يتمتعون به من ضمير ونظافة يد، بدل أن يأتي طلّاب السلطة وحينها لن يكون لنا حاضر نعيشه ولا ماضي نتصبر به»

تركني سعيد، وكلماته تطرق رأسي بقوة، أراد لي أن أقترب من الصورة الكبيرة وإذ بي أزداد تشويشاً وبعداً عنها.

تمنيت لو سألته سؤالاً بدأ يكبر داخلي ويتضخم حتى امتلأتُ به:

لماذا تعجز الحكومة إذاً عن القيام بهذه الإصلاحات ما دامت أنجزت ما هو أصعب وأكثر ندرة؟

تذكرت مقالاً مررت به قبل فترة لكاتب مصري تساءل فيه ما إذا كان بمقدور الحكومة الإرترية أن تحافظ على إرثها التاريخي العظيم في جلب الاستقلال للبلاد، أم يتلاشى كل شيء تحت اختبار الواقع ليتحول امتنان الشعب إلى سخط ونقمة؟.

هذا زمانك يا عمائم

فلتقودي «الغافلة»

م. الشيخ

بالكاد أحمل نفسي وأنهض من سريري تحت صراخ أمي

«يلا قوم راح تخلص خطبة الشيخ ماجد. . كله إلا الجمعة»

أسير إلى المسجد والتعب يدق عظامي، أتمنى لو أجد مكاناً عند أحد الأعمدة لأتكىء عليه، يخيب ظني، فالمصلون هنا يتسابقون إلى أعمدة المسجد أكثر من الصف الأول.

يصرخ الشيخ ماجد فيبدد آخر ذرة نعاس في رأسي، أحاول فهم ما يقوله، لكنه يواصل الصراخ، أخيراً فهمت أنه يتحدث عن حرمة السفر إلى بلاد الكفار لغير ضرورة ملحة.

ككل جمعة أشعر أن خطيب مسجدنا توقفت ساعته عند لحظة بعيدة. ألتفت حولي فأجد المصلين بين متململ ونصف نائم، أنشغل بأفكار عديدة، بينما يواصل الشيخ وعده ووعيده.

قد يكون الشيخ استلهم خطبته من إحدى الفتاوى المعلقة في مكان بارز في المسجد، وهي فتوى كثيراً ما توقفت عندها لغرابتها ولأنها صدرت عن أحد كبار العلماء. يسأل سائل فيقول إنه مسافر للسياحة إلى إحدى الجزر اليونانية برفقة زوجته المحجبة، وسيكون

حريصاً في رحلته أن لا يخالط الكفار وأن لا يأكل إلا حلالاً، فيجيء الجواب صارماً:

السفر إلى بلاد الكفار لغير مسوغ شرعي لا يجوز، والسياحة ليست مسوغاً شرعياً.

لم أكن أجد مثل هذه الفتاوى غريبة في زمن مضى حين كنت واحداً من المطاوعة.

أذكر جيداً تلك الليلة حين خرجت برفقة مطاوعة الحي للعب كرة القدم، كنت وقتها في الخامسة عشرة. بعد انقضاء اللعب تحلقنا حول شيخ يعظنا ويذكرنا بالآخرة، بكى المطاوعة وبكيت معهم، في الصباح جمعت ثيابي وطلبت من أمي أن تقصّرها إلى منتصف الساق.

أصبحت أحد أعمدة المطاوعة في حيّنا، كنت أقضي معظم الوقت بين المحاضرات الدينية، والمخيمات الشبابية. أصبح لي رفاق جدد بعد أن خيّرت القدامى بين الطواعة أو الفراق. كنت مسروراً بحياتي الجديدة، خاصة مع سماعي لعبارات الثناء من كل أقاربي

«الله يحفظك ياشيخ عمر، بالله تدعيلنا»

أصبح أبي يتفادى التدخين أمامي، بينما كانت أمي تكمل مسلسلها المفضل عند جارتها في حال صادف وجودي في البيت. حتى الآباء في الحي كانوا يشكون لي تصرف أبنائهم الذين يكبرونني سناً.

شيئاً فشيئاً بدأت أشعر بحالة الهيبة التي أحاطتني بها الطواعة، فلم أكن قبل فترة وجيزة سوى مراهق يكره مطوع الهيئة الذي ينهي التمرين عصر كل يوم بمايكروفونه المدوي:

«صلّوا.. صلّوا»

قبل أن نصادفه مساءً وهو يدخن الجراك في ركن قصي من مقهى الحي.

كنت أسخر من أحد أقاربنا الذي قرر فجأة أن يصبح مؤذن الحي، وكنّى نفسه أبا بلال

«مالك عامل شعرك كده؟»

«لا تتريق.. كده كان شكل سيدنا بلال بن رباح»

«يا واد انت بتقلد بلال حق المسلسلات المصرية».

غترة وثوب قصير، صنعت هذا التحول الكبير في حياتي، ونقلتني من خانة الواد إلى خانة الشيخ.

«بس انتبه لا يضحكوا عليك ويقولوا لك روح أفغانستان.. ترى تروح شربة»

لا أدري كيف عرف أحد أصدقاء الجاهلية أني كنت أحدّث نفسي بالأمر، خاصة بعد محاولات مدرس الفقه المتكررة

«انت أنوي بس وسيب الباقي عليا»

كان كل شيء مهيأ لألتحق بطابور من الشباب استطاع مدرس الفقه إقناعهم بالسفر إلى أفغانستان

«ايش تستنوا.. الحور العين ينتظروكم.. وانتوا نايمين في العسل»

«طيب ليش ما تروح انت يا استاذ؟»

ألتفتُ بحنق لصاحب السؤال الذي يجلس في الصف الأخير من القاعة.. قبل أن يأتي جواب المدرس

«الجهاد يبغى شباب زيكم، انا راحت عليا، لكني أجاهد بدعوة الطيبين أمثالكم»

لم يكن هذا المدرس وحده دافعي للتفكير بجدية في أفغانستان وحورها العين، فقد كانت «طلعات» الطائف حكاية حفز أخرى

كان لنا خميس في الشهر نقصد فيه جبال الهدا على أطراف المدينة.

باص كبير يلم مطاوعة مسجدنا ومسجدين مجاورين وبعض عيال الحارة الذين نتوقع هدايتهم. ينطلق الباص عقب صلاة الفجر، ولا يعود بنا إلى جدة إلا منتصف ليل اليوم التالي.

تنقسم الطلعة إلى قسم صباحي يتوزع بين كرة القدم والدروس الدينية، ومسائي مخصص لألعاب التحدي تبدأ بالمصارعة والجري حتى يحل الظلام لتبدأ اللعبة الرئيسية التي تحاكي وضع المجاهدين في جبال أفغانستان.

يقسمنا الشيخ إلى فريقين، فريق يقوم بالتخفي بين الجبال وآخر يبحث عنه، تمر اللعبة بتفاصيل كثيرة أساسها الشيخ وكبار المطاوعة ينصبون فخاخاً بغية إخافتنا واختبار شجاعتنا.

يمر الوقت ويتساقط «الخوّافون» واحداً تلو الآخر، بينما يكرّم الشيخ أكثر «الإخوان» شجاعة. نظن أننا انتهينا بانتهاء الألعاب، غير أن الشيخ يدخلنا في لعبة أخرى

«الفريق الخسران عليه المناوبة»

يدخل الفريق الفائز خيمته على عجل لاستغلال كل ثانية في نوم عميق، بينما يندب الخاسرون حظهم الذي جرهم للبقاء طوال الليل على أبواب الخيمة، ولا ينسى الشيخ آخر وصاياه وهو يتوسد مخدته

«لا تناموا.. تخيلوا أنفسكم تحرسوا الجيش.. لا يؤتى المجاهدون من قبلكم يا اخوان»

لا يهنأ الفريق الفائز بالنوم طويلاً.. إذ تنطلق صافرة الشيخ قبيل الفجر، يقفز بعضهم من فراشهم مفزوعين خشية تأخرهم عن اللحظة الحاسمة، ثوان قليلة ثم تنطلق صافرة ثانية، يدلق الشيخ بعدها أكواباً من الماء البارد على من لا يزال نائماً.

ثلاثة أعوام فقط قضيتها في كنف الطواعة، احتجت بعدها إلى أعوام طويلة كي أتعافى من كل ما لحق بي.

خرجتُ بما يشبه الندوب في روحي وطريقة تفكيري، خرجتُ باحثاً عن حياة طبيعية افتقدتها بكل ما في الكلمة من معنى.

كي أصبح مطوعاً حقاً كان يجب أن أعيد ترتيب الأفعال بحيث يتصدرها الكُره.. أن أحيط نفسي بدائرة داخل دائرة المجتمع الكبيرة، وضعتني في عزلة اختيارية عن أقرب أقاربي.

لم يكن يكفي حينها أن أصبح مسلماً وحسب.

«ليش عامل الغترة كذا؟»

كنت عائداً من الحج، وممتلئاً بأحاسيس إيمانية، عقدتُ الغترة على رأسي بشكل دائري، عوض إسدالها كما كنت أفعل دائماً، لم يعجب ذلك شيخي

«اعملها زي أهل البلد»

لم تكن الغترة وحدها ما يجب أن يكون وفق ما يقوم به أهل البلد.

على الدوام ظلت مسافة تفصلني بين الإسلام الشامل، وآخر محلي التصقتْ به نتوءات تعصب حتى شوهته.

«وين ما تروحوا ما راح تلاقوا زي الإسلام في هالبلد.. هنا الصحيح والباقي بدع وضلالات»

كان الشيخ يرد على شاب استشهد بفتوى عالم دين مرموق في بلد عربي، قبل أن يصبح أكثر صراحة:

«أتركك منه.. خليك بس مع شيوخنا الله يحفظهم».

للجرح وجهان :

من ظمأٍ نادمته الحناجرُ

من وطن للطريق المهاجرِ

م. الثبيتي

حين أكون معكِ. . لا أعود أشعر بالبرد.

هل تصدقينني لو قلت لك إن هذا هو أغلى ما أرجوه؟

أن يزهد البرد في روحي، فلا تعود تمثل له شيئاً. أن ينسى طعمها ولونها وحتى رائحتها، فتنتفي كل عوامل الإغراء عنها.

أعوام طويلة، والبرد مقيم دائم على تخوم الروح، كلما أصابها شيء، أغار على موطن الجرح فاستوطنه، حتى لم يعد مكان بداخلي متحرر منه.

هل جربتِ البرد حين يستوطن الروح؟

لا تقولي لا، فتلك مصيبة أخرى. .

بقدر ما هو مؤلم أن يسكننا البرد، مؤلم أيضاً أن لا يكون قد مرّ بنا. فالبرد وحده يشعرنا بقيمة لحظاتنا الدافئة. . يريحنا من الوقوع في فخ الاعتياد، ليحفظ مشاعرنا طازجة. . ولو لحين.

أكره البرد. ففي حضرته حدثت أكثر الأمور قتامة في حياتي، مرض أبي فأصبح يشعر بالبرد، وحين مات انتقل البرد إلينا.

«يا ريت تشوف أبويا. . القسطرة توجعه»

يستمر طبيب الطوارئ في تفحص الأشعة، ودون أن يرفع رأسه:

«احنا في ايه وانت في ايه؟.. أبوك قلبه ضعيف بالمرة وانت تقلي قسطرة!»

«وان يكن.. ليش نخليه يتألم ما دام قادرين نريحه؟»

تمر ساعات طويلة في قسم الطوارئ، ومعها يزداد البرد..

«غطوني.. غطوني»..

بالكاد يصل إلينا صوته متعباً، وكأن العمر بكل قسوته يضغط على حباله الصوتية مع كل محاولة للنطق.

نغطيه فلا يذهب البرد.. نطلب بطانية أخرى، فتستمر رعشة الجسد المنهك. تمسك أمي بيده فتسكن الرعشة، يغادر البرد.. يغادر مؤقتاً.

يعود الطبيب الشاب، هذه المرة يريد إخباره شيئاً، أستأذنه أن يكتفي بإخبارنا، لكنه يصر:

«في أمريكا تعودنا نتكلم مع المريض عن حالته بكل صراحة، لو سمحتو.. أنا عارف شغلي أكثر منكم»

فات الطبيب الشاب أننا في المقابل نعرف والدي أكثر منه..

«لازم تعرف أن وضعك صعب كثير.. قلبك تعبان جداً»

وضعت أمي يدها على صدر والدي وكأنها تتساءل لماذا اختار التعب أن يتكئ على قلب زوجها دون سواه؟

كيف لهذا القلب المترع بتعب السنين أن يضاف إليه تعب آخر؟

يحاول نزع خاتمه الفضي الذي لازمه طوال عمره فيغلبه الوهن،

تساعده أمي، بينما أود سؤاله، لماذا؟، بالكاد يرفع يده المرتعشة، يناولني الخاتم.. أقبض عليه بقوة، وأقبّل يده، ينظر إلي ويبتسم.

يدقّ البرد عظامي.

أعوام بعد ابتسامته الأخيرة، وأنا أقتات على تركته من النبل، ومن خفة الروح.

«أبوك كان راجل طيب وصاحب نكتة»

«تسلم يا عم.. عليه رحمات الله»

"أفتكر مرة في البلد.. هذا الكلام قبل ما تتولد.. اشترى خروف وربطه في حوش البيت، في الليل جاء البائع يعتذر لأنه أعطاه خروف أعور.. رد أبوك بدون ما يفكر:

«لا تخاف مش رايح أشغله ساعاتي».

آخر يخبرني أن المقهى الذي كان عامراً بضحكاته، لم يعد وجهة مفضلة بعدما غادره.

لا أستغرب. فكثيراً من الأشياء بعده فقدت جمالها، حتى منتخب «السادة»، أصبح باهتاً وفقد كثيراً من ألقه.

لم يكن والدي يفوّت مباراة لنيجيريا، كان متعصباً لهذا الفريق. وحدهم النسور كانوا يشفون غليله وينتقمون لخيباته التاريخية:

«محد يقدر يذل الأبيض إلا السادة.. الآن انتهى زمان العبودية».

لم يكن يتحدث كثيراً في السياسة، لكنه في المرات القليلة التي يفعل، كان يعاتب أصدقاءه المقربين:

«جبهة التحرير ضيّعت البلد. لو تركتو العنصرية والقبلية كان من زمان إرتريا تحررت، الآن لا تلوموا الشعبية أبداً، على الأقل يحسب

لهم الاستقلال وردم العصبيات. . الشعبية هي التنظيم الوحيد اللي جمع الإرتريين تحت مظلة واحدة بدون أي اعتبار طائفي أو عرقي». .

مر وقت طويل قبل أن أعود إلى حديثه ذاك وأنا أتفحص بطاقة وجدتها بين أغراضه تفيد بأنه كادر قديم في جبهة التحرير!.

«هل عرفتِ الآن أهمية وجودك في حياتي؟». .

تطوقني سمراويت بذراعيها. .

«رحمه الله. . حبيبي. . المهم أنك لم تعد تشعر بالبرد، ولن تشعر به مجدداً. أعدك».

لا تُحذْ
الفظ جحيمَك
أو فغادِر ساحليك إلى الأبدْ

م. الشيخ

كالعادة أدخل قاعة الاجتماعات قبل بدء اجتماع التحرير بلحظات. أجد ابتسامة عادل الماكرة في انتظاري، يبدأ الاجتماع بقسم المحليات ثم الرياضة فالسياسة، وأخيراً الثقافة، يلتفت رئيس التحرير إلى عادل:

«عندي ملاحظة على صفحتكم.. عدد أمس كان فيه شوية مجاملات.. يعني نصف صفحة كثير على المهرجان»

لم يكد رئيس التحرير ينهي جملته حتى انتفض عادل وكأن عقرباً لدغته:

«عفواً يا رئيس التحرير انت أكبر مجامل.. ناسي القصيدة المكسرة اللي أجبرتني أنشرها لصاحبك اللي في البلدية»

كدت أنفجر ضحكاً رغم قنبلة عادل التي أصابت الجميع بالصدمة، بينما رئيس التحرير يبحث له عن مخرج من ورطته:

«البلدية؟ ما أذكر عندي صاحب في البلدية»..

في الوقت الذي يمضي رئيس التحرير الوقت في محاولة تذكر صديقه، تنهال غمزات التأييد على عادل. مع هذا، لم يكن عادل

سوى مثقف مرهف الحس ضل طريقه نحو الصحافة. كنت عادة ما أناديه بالبدوي الأخير..

«مع الوقت قدرت أتخلص من معظم البدو القدامى.. أنت البدوي الوحيد اللي عرفته على كبر.. وخلاّني أفكر كيف أرجعهم»

«وأنت الأسود الوحيد اللي خلاّني أكسر قاعدة الوالدة: لا تمشي مع الخيلان يا وليدي»

نضحك بصوت عال، بينما البقية يستغربون هذا القدر من «الحش» الذي لا يفضي لشيء سوى لمزيد من القرب.

كان هذا البدوي الجميل رفيقاً في المهنة، وفي عشق النزلة..

«يا واد خلينا نروح حارتكم.. نفسي في معصوب»..

ينتشي عادل حين يمارس جداويته الطارئة على بداوة مقيمة، يسهب في الطقوس.. يزور «معصوب حميد»، و«فول عم غالب»، يشجع «شباب النزلة».. يفاخر بأنه يعرف «صمدو»، و«أبو الريش»، وسبق له أن لعب في «الصخرة»، الملعب الذي أخرج أحمد جميل وخالد مسعد.. وآخرين من عباقرة الكرة السعودية.

لكن عادل سرعان ما يعود بدوياً قحّاً ما إن تحمله خطاه إلى مضارب قريته، هناك في عمق الصحراء، يترك خلفه سيارته الموستنغ، وجينزاته، ليعود هلالياً متعصباً، «يفر الديرة فر بعراوي الوالد»، لأن «كله إلا علوم الرجاجيل»

«اخترت عنوان ديوانك؟»..

«والله نفسي في اسم بس خايف جماعتنا ياكلوا وجهي: إن عذابها كان غراماً»

«الله.. عنوان حلو.. طيب فين المشكلة؟»..

«والله.. عجبك؟.. خلاص مدام كده اتفقنا»..

يصلني الديوان معبأً برياحين العشق، ومزيناً بإهداء عذب، لكنه يحمل عنواناً آخر.

«يا خوّاف»..

«ايش فهّمك انت يا حبشي في علوم الرجاجيل.. والله غير لا يقوم عليّ الحق»..

هكذا كان عادل يهرب كلما واجهته بقيوده، لكنه في النهاية اختار هروباً مختلفاً، هروباً بعيداً

«أنا في اسكتلندا الآن.. في إدنبرة بالتحديد

يقولون إنها من أجمل مدن العالم.. هي كذلك.

غير أني أرى فيها غير ما يرون.. أتسرب في شوارعها المصبوغة بطعم التاريخ ككائن سحري لا يرى.. أقف فوق كل حجر صغير في دهاليزها الهادئة فينفجر لغماً معتقاً بأشباح قصص.. وحكايات رغبة.. وقصيدة تحتشم إلا من كشف تخوم نهديها...

بالأمس.. كنتَ أنت من يتحكم في كاميرا مباراة الأهلي والاتحاد وليس مخرج المباراة.. تأكدت من ذلك عندما كانت الكاميرا تمر على وجه الهزازي إخوان.. كل عشر ثوان.. فتأتيني صورتك.. ويبدأ صوتك المتمكن من غواية اللغة إلا من السين اللعينة (الثلام عليكم) وأشعر بنكهة النزلة اليمانية تلفح قلبي من المطبخ القريب.. أظن أني رأيت وجهك والهزازي إخوان أكثر من الكرة نفسها..

أن أكون في اسكتلندا.. في إدنبرة بالتحديد.. تلك التي يقولون إنها من أجمل مدن العالم.. وأرى فيها غير ما يرون.. أراك أنت.. فهذا ينبيك عن حجم الشوق إليك.. بالإضافة إلى «قرادة» حظي..

«دم كما أنت: أسود من غيمة.. أبيض من حلم.. أيها الحبشي الجميل»

تصيبني أحرفه بقشعريرة مربكة، أعيد تأمل كلماته مرات كثيرة. فالبدوي الجميل الذي غادر إلى صقيع أوروبا، نازعاً عنه الصحراء ولو لحين، نزع عني أيضاً دفء تلك الرفقة المختلفة إلا من مداخلاته على الفيس بوك.

في غيابه أشتاق إلى الصحراء، إلى حبات الرمل التي يعشقها، إلى الجراد الذي يصطاده رفقة «ورعان الديرة»، إلى نادي الهلال الذي لا يمكن هضمه، أشتاق إلى غترته ناصعة البياض «بتسكيبة الكوبرا» التي يفضلها..

«أخاف تتأثر بشكل الغترة وتلدغني»..

يضحك طويلاً لكنه لا ينسى أن يرد بطريقته:

«زعلان يا حبشي عشان ماعندكم زينا»

«زينا»..

كان عادل «زينا» تماماً، قريباً حد التماهي، كان ضمن قلة تنتسب إلى زمن جميل، زمن ما قبل التسعينيات، وقتها لم يكن قد حان اكتشاف فروقاتنا المليون كأجانب عن أهل البلد.

أعود إلى رسالته، هذه المرة لأكتب رداً يليق بيتمي من بعده:

«قدرك يا عادل أن تكون أجمل من كل المدن التي تحط عليها كطائر مهاجر بالدفء لا إليه.. ومع هذا فمدينة واحدة ستكون نداً لهذا الجمال.. جدة.. بكل حفرياتها.. فقط لأنها جمعتني بك كما ستفعل مجدداً.. . ولأنها استطاعت أن تجعل بدوياً مثلك يلتفت إلىَ النزلة.. موطن الأحباش».

ابتكر للطفولة عرساً تعلّق فيه التمائم واللعبَ الورقية.. والأغنيات

م. الثبيتي

في موعده تماماً يصل سعيد لمودرنا. تكتفي سمراويت بحقيبة يد واحدة، بينما أجاهد لأجد مكاناً في السيارة لحقيبتين كبيرتين، يزيح سعيد بعض أغراضه فتجد أغراضي متسعاً، يلتفت إلي:

«مؤكد أن الشوق يقتلك لمدينتك»..

لم أكن أعرف تحديداً ما إذا كان الشوق هو ما يحملني إلى مصوع؟

عدة مشاعر تختلط دون أن تخرج بلون يمكن الاهتداء إليه. أسافر إلى منبت أجدادي، إلى البحر الذي عشنا عمراً على ضفته الأخرى بانتظار ساعة العودة إلى الضفة الأم.

تحتشد في رأسي حكايات جدتي عن باصع التي لا يفوق جمالها شيء، عن ختمية، حينا الذي تحمل تربته حدائق الذكريات، عن قطان قبي سقالة، الجسر الذي يقطع البحر ليربط طرفي مصوع.

عبء ثقيل أن تسافر وأنت محمّل بكل هذا القدر من ذكريات الآخرين المعتّقة، من همومهم وأمانيهم، من أحلامهم التي تحققت، وتلك التي طال انتظارها.

نسلك طريقاً جبلية متعرجة بشكل حلزوني، وعلى جانبيها تنتشر

شجيرات الصنوبر، أدرك الآن معنى أن تستنفد مصوع كل العمر دون أن تنهي عطش الانتظار.

نواصل النزول باتجاه البحر، أشعر بنفحاته تلفح وجهي، يشتد خفقان قلبي، أستجمع عواطفي، وأغمض عيني كي لا تتسرب هذه اللحظة من بين أضلعي

«حبيبي.. وصلنا»..

لم أكن نائماً كما ظنّت سمراويت، كنت فقط أستعد لهذه اللحظة بطريقتي، وددت لو أفتح عيني فأجد ملامحي تقترب أكثر من أولئك الذين قضوا عمراً تضوع فيه أقدامهم المتشققة بغبار أزقة باصع، تمنيت لو أبدو طاعنا في النبل كما الأجداد، أن تملأ تجاعيد الحكمة وجهي، أن أصبح مصوعياً لا تخطئه العين، ولا القلب.

«حبيبي.. هذا البحر»..

أسمعه.. أراه. على وقع موجاته المتلاحقة، يعيد القلب ترتيب خفقانه. وحده بحر مصوع لا يحمل إلا ما ينفع الناس، مذ غادره الزبد بمجرد أن هدأت على شطآنه أشرعة الصحابة القلقة، منذ ذلك الوقت ومصوع «أرض صدق» لا تكف حقولها تتفتح بأولياء الله الصالحين.

نتوغل أكثر في المدينة، فيشرع التاريخ نوافذه، تفوح روائح العشق والدم، تحكي القصة الأولى لالتئام التراب. تقف قصور «الطليان» بشموخ منقوص بعدما اتكأ عليها الزمن طويلاً، إلى جوارها تستميت قباب الأتراك كي لا تتبخر آخر نقوشها تحت لهيب باصع. نسير قليلاً تظللنا الرواشين المصرية تطل من السماء كأب حان لم يفقد ابتسامته رغم مرارات السنين.

«حبيبي.. هل تعرف أن مصوع كانت عاصمة إرتريا؟»..

وأعرف أنها عاصمة القلب وتفاحته، على تخومها تستريح الروح كما لم تفعل من قبل، ولن تفعل. أعرف أنها مبتدأ الحب وخاتمته، حبله السري الذي يمده بالحياة، بدءاً من ختمية وطوالوت مروراً بكابو مارتا وأدّيس ألم، وليس انتهاء عند حرقيقو وحطملو وأماتري وقرقسم، إلى باقي مناطق باصع البهية.

توقف سعيد عند زورقين حربيين أمام متحف المدينة، خُطّ عليهما التاريخ 1989م، استمر في النظر إليهما دون أن يقول شيئاً. سألته سمراويت إن كنا سنزور المتحف في البدء..

«من المهم أن نبدأ من هنا.. من هنا ابتدأ كل شيء، وعنده انتهى»

كان المتحف مبنى من ثلاثة طوابق، قسّمت معروضاته إلى قسمين، أحدهما يعنى بآثار المدينة براً وبحراً، بينما الآخر يستعرض قصة كفاحها عبر التاريخ. مررنا سريعاً على القسم الأول أو هكذا أراد سعيد، قبل أن يطول توقفنا عند قسمه الثاني، وتحديداً عند بندقية قديمة..

«الزورقان في الخارج، كانا آخر عنقود النضال، بينما هذه البندقية هي شرارته الأولى، «أبو عشرة» سلاح ألماني أعطي للعثمانيين ومنه تسرب إلى الثوار الذين جعلوه فاتحة ثورتهم ضد المستعمر الإثيوبي، لم يكن أحد ليصدق أن شعباً بأكمله قد يتحرر انطلاقاً من هذا السلاح، لكن عزيمة الثوار هي دائماً أقوى من كل سلاح»

إلى جانب أبو عشرة كانت تتناثر مقتنيات الثوار، قنابل، أحذية، كتب، ألبومات صور، علبة إسعافات أولية، أجهزة لا سلكي، ألواح خشبية، وأقمشة بيضاء طويلة لفّت على شكل جدايل..

«إنها السَّماديت، رفيقتنا الدائمة ليل نهار، نقاتل فتكون بمثابة ضماد لجروحنا أو كفن في حال كانت الشهادة من نصيبنا، حين نعود نضعها وسادةً أو لحاف نتقوى به على البرد، لذا ليس غريباً أن تتحرر البلد وتبقى السماديت رفيقة الإرتريين عبر انتقالها من أداة حرب، إلى لباس تراثي لا تخلو منه حلية العريس الفاخرة، وكأن الإرتريين أرادوها حكاية للفرح بعد أن كانت طيلة عقود مرادفاً للمرارة»

انتقلنا إلى زاوية أخرى أقيمت فيها مجسمات تشرح تحرير مصوع..

«معركة «فَنقِل» أو الاجتثاث بداية العام 1990م، كانت البوابة التي قادت لتحرير كامل التراب الإرتري. بمجرد أن فقد العدو سيطرته على مصوع تهاوت بقية المدن التي كانت تحت سيطرته، فقد أغرنا على الجيش الإثيوبي من ثلاث جهات، وقمنا بتعطيل قدراته البحرية والبرية عبر قطع الإمدادات عنه رغم دعم السوفييت الجوي، كانت فنقل معركة حاسمة أعادت كرامتنا، ومرّغت أنف العدو في هذا التراب الذي استحله ثلاثين عاماً»

واصل سعيد شرحه لمحتويات المتحف بحماس كبير، كان يتنقل فرحاً في أرجائه كطفل يقلّب هدايا العيد، بينما أنا وسمراويت نوزع تركيزنا بين الاستماع له والتقاط الصور. فجأة توقف أمام صورة لأحد الثوار، لم يبدو الأمر شبيهاً بمروره السابق على محتويات المتحف، هذه المرة كان وقوفاً مجللاً بالتقدير، وكأنه في حضرة أحد القديسين.

اقتربت من الصورة، كانت لثلاثيني بلحية كثَّة وشعر كثيف، يحمل بندقية ويرتدي بزة عسكرية بسروال قصير وتحيط بخصره السماديت، ابتسامة الرجل الصافية منحت الصورة مسحة خلود لافتة،

وقبل أن نسأل عنه جاء جواب سعيد:

«مسفن. رفيق نضالي، ومعلمي في الميدان، كان قائد سريتنا في معركة فنقل وأكثرنا إقداماً، بفضله الآن أنا معكم بعد أن أنقذني حين أصبت إصابتي البالغة، حملني على ظهره لمسافة طويلة وأنا أنزف حتى أخرجني من الميدان ولم يعد إليه حتى اطمأن على حالتي، كانت تلك آخر مرة رأيته فيها، خضّب بدمائه الأرض التي نقف عليها»

ساد صمت لبعض الوقت لم نتمكن فيه من قول شيء، كانت حالة سعيد الوجدانية طاغية على المكان وعلى مشاعرنا، اكتفيت بتأمل الصورة، بينما قامت سمراويت بتمرير أصابعها عليها وكأنها تود الظفر بشيء من الرجل الذي يهزّ أعمق ما فينا. لم ينه حالة الصمت إلا صوت سعيد وقد عاد لصرامته وكأنه يستعد لمعركته التالية:

«دعونا نغادر، أمامنا مهام كثيرة»..

وضعنا حقائبنا في فندق البحر الأحمر على أن نعاود الخروج مساء بعد أن تكون شمس مصوع قد هدأت قليلاً. ساعدتُ سمراويت في تفقد غرفتها وقبل أن أخرج جاءني صوتها يتمايل غنجاً:

«ألا تريد البقاء قليلاً؟»..

يا لهفة المأموم

صلى فرضه قبل الوضوء!

م. الشيخ

لم يستطع صخب المكان ولا كثرة الراقصين أن يصرفا الأنظار عن فتاة تتلوى بمرونة وتناغم مع موسيقى يلهث الآخرون للحاق بإيقاعها. توقف أحمد عن الرقص على غير عادته ليلاحق الفتاة بنظراته قبل أن يحاول الاقتراب منها أكثر..

«فين رايح؟»..

«منت شايف بنت اللذينا.. خليني ألحقها قبل ما يخطفها أحد»..

يقترب أحمد أكثر من اللازم، فتحاول الفتاة الابتعاد قليلاً، لكنه يعاود المحاولة، هذه المرة يكاد يشاركها أنفاسها، فيتدخل شاب آخر ليصبح حاجزاً بين أحمد والفتاة، تواصل الفتاة الرقص، ويواصل أحمد محاولاته.

من بعيد أرقب هذه المباراة غير المتكافئة، فعناد أحمد ورغبته في الحصول على شيء لا يمكن مجاراتهما.

يتظاهر أحمد بالاندماج في الرقص فلا تمر لحظات إلا ويكون قد التصق بالفتاة ثانية، لكنه هنا وقبل أن يتدخل أحد كان قد أتمّ همس بضع كلمات، تبتسم الفتاة، يبتسم أحمد، لا يعود بحاجة ليقترب أكثر، فقد كفته الفتاة ذلك.

«أموت وأعرف ايش قلت لها». .

«مو مهم. . المهم اني فتحت خط»

تغادر الفتاة ساحة الرقص لتعديل مكياجها، كان أحمد يتوقع هذه الخطوة فقرر أن نغير مكاننا لنكون في طريقها. لكن الفتاة وقبل أن تصل إلينا استوقفها شاب تعرفه. .

«مين ابن الكلب هذا كمان؟». .

كاد الضحك يقتلني، إذ كلما ظن أحمد أن حديث الفتاة مع الشاب انتهى، تذكر الأخير شيئاً فتح به موضوعاً جديداً. كان أحمد معطياً ظهره لهما على أن يلتف بمجرد مرورها ليصطدم بها وكأن الأمر حدث مصادفة. دوري كان في الحيلة أن أعطيه شارة البدء:

«الآن»

يلتف أحمد فيجد الفتاة وقد عادت إلى الشاب بعد أن كادت تغادره. .

«وآخرتها يا ابن. . . »

أخيراً تأتي الفتاة لكني هذه المرة لا أعطي لأحمد أي إشارة، فقد أربكني تحديقها في وجهي بإصرار غريب

«عمر؟». .

«ايوه. . »

«ما عرفتني؟»

«لا والله للأسف»

يدوس أحمد على قدمي بغلٍّ، دون أن يجعلني ذلك أتذكر الفتاة، يميل عليّ:

«ياواد اتلحلح»

تقترب الفتاة أكثر. . تصافحني بشدة:

«أنا منى. . مش فاكرني. . جارتك القديمة في النزلة»

«آه. . منى». .

يشتد غيظ أحمد:

«دوبك يا أهبل». .

«معليش سامحيني. . شكلك تغير كثير. . ما عرفتك»

نتبادل عبارات سريعة، تستأذن لتعديل مكياجها على أن تعود سريعاً لنكمل حديثنا، يفقد أحمد صبره:

«هات الهرجة. . مين هاذي؟»

لم تكن منى سوى فتاة خجولة بالكاد تطل برأسها عبر النافذة حين يزداد صخبنا في الحي، لم تكن بهذا القدر من الفتنة، كانت عادية في كل شيء إلى الحد الذي يجعلها لا تلفت الانتباه، لكنها اليوم تمتلئ جرأة وإغواء، تصيب الرؤوس بالدوار. .

«يخرب بيتها. . افتكرتها». .

كيف قطعت منى كل هذه المسافة الضوئية من منزل متواضع في أحد أزقة النزلة إلى الكباين، حيث الوجه الآخر من جدة؟ وجه تضيع ملامحه تحت الشمس، حتى إذا غابت حلَّ محلها جرأة وحضوراً.

لم يكن ارتياد شاليهات جدة، أو الكباين إلا مجازفة من نوع مختلف، فهي تتطلب اختيار الشاليه المناسب من حيث الحصانة وعدم قدرة رجال الهيئة على دخوله، وهو أمر لا يمكن معرفته لغير القريبين

جداً من هذا العالم خاصة وأن غلطة واحدة في هذا الشأن قد تكلّف غالياً.

كان أحمد هو المسؤول عن الحجز في الشاليه المناسب، بينما يوزع المهام الأخرى على بقية الحضور:

«لا أشوف أحد جاي طرزان. كل واحد يجيب معاه بنت وحده على الأقل»

أما أنا فمهمتي الوحيدة كانت مرافقة أحمد:

«أنا ما عندي بنت زي منت عارف»

«لا انت استثناء حتى ربنا يفتحها في وجهك»

يقف على بوابة الشاليه رجال أمن أفارقة تكاد عضلاتهم تمزق ملابسهم، يقترب منهم أحمد:

«عائلة محمد الأحمد»..

يجري أحد الحراس اتصالاً عبر جهاز لا سلكي ثم يسمح لنا بالدخول

«مين محمد هذا؟»

«هذا واحد صاحبي حجزت الشاليه باسمه وأعطيته فترة الصباح، كده احنا في السليم»

يتقاطر بقية المدعوين إلى الشاليه بذات الطريقة، سعوديون ويمنيون وإرتريون وحتى خواجات، وجوه بعض الشباب مألوفة وأخرى أراها للمرة الأولى، بينما كنت أرى معظم الفتيات للمرة الأولى.

مع اقتراب الساعة من منتصف الليل يكون الصخب قد وصل

ذروته، موسيقى تدوّي في أرجاء المكان، دون أن تحجب تماماً قرع كؤوس الويسكي. أجساد تتمايل على وقع الموسيقى الصاخبة، وأخرى تحت وقع «الصواريخ» التي لكثرتها بدأت أعتقد أن نبتة الحشيش تزرع في حديقة الشاليه الخلفية.

«خذ وحدة». .

«لا لا . . خليني متفرج أحسن»

«خذ وحدة لا تصير جبان، وحدة ما راح تضر»

أتناول لفافة الحشيش من أحمد، وأسحب نفساً عميقاً، يكاد يخنقني

«بشويش. . على مهلك. . مين بيجري وراك؟»

نفَس آخر، وثالث ورابع، أطلب لفافة أخرى بعدما شعرت أن الصواريخ بتعمل جو. ألمح منى وهي تراقص شاباً، أسحب آخر نفس في اللفافة بيد بينما اليد الأخرى تسحب منى، أنفث دخان الصاروخ في وجهها، تبتسم وتراقصني، وسط صيحات أحمد:

«يا واد يا مرفوع. . الصاروخ جاب نتيجة»

يؤذن الفجر، فيتنادى السكارى والمرفوعون بالتوقف عن الرقص إجلالاً للأذان، دقائق ويعود الصخب من جديد لاستغلال آخر لحظات «الفَلّة» قبل أن ينفض «البارتي»، وحده أحمد كان مشغولاً بأمر آخر:

«دحين وقت التشبيك»

تطلع الشمس فتكتب نهاية لليلة عامرة بالتفاصيل، يبدأ الناس في المغادرة باستثناء مجموعة صغيرة استطاعت تشبيك فتيات جدد، هؤلاء فقط كان مسموحاً لهم البقاء، واستخدام غرف الشاليه.

أجلس على كرسي قريب، يمر أحمد من أمامي وهو ممسك بيد منى، يصعدان السلالم في طريقهما إلى الطابق العلوي، تتحاشى منى النظر في عيني بشكل مباشر، بينما يختصر أحمد كل إحساسه بنشوة الانتصار في غمزة يرسلها إليّ من عل.

يمضي الوقت رتيباً وأنا ملتصق بالكرسي نفسه، تصلني رسالة على هاتفي.. من أحمد:

«راح أتأخر.. إذا نعسان ممكن تروح ونتقابل المسا»..

من يقاسمني الجوع والشعر والصعلكة

من يقاسمني نشوة التهلكة؟؟

م. الثبيتي

حل المساء وغادرت شمس مصوع دون أن يغادر لهيبها الذي التصق بكل شيء هنا، بدءاً بالجدران وليس انتهاء بأجسادنا. كان الاتفاق أن نلتقي في بهو الفندق، خرجتُ أولاً وتبعتني سمراويت، بينما وجدنا سعيد في انتظارنا

«هل تعرف تحديداً أين يقع البيت في ختمية؟». .

لم يكن سعيد يدرك تماماً أني قادم لمصوع ببضع قصاصات لأسماء الأماكن، وذاكرة تخص غيري. كنت قادراً فقط على سرد العناوين دون أن يربطني شيء هنا بالتاريخ أو الجغرافيا، وحدها الحكايات المعتقة دليلي في هذه العتمة التي تسكن رأسي.

«ختمية هي أضيق دائرة يمكن الاهتداء بها إلى البيت، فأنا من مصوع، من عداقة تحديداً، ومن ختمية في عداقة. للأسف لا أستطيع التوغل أكثر، فمعلوماتي تتوقف عند تخوم ختمية». .

«لا عليك، سنجده حتماً»

مصوع في المساء تبدو أكثر حركة، لكنها الحركة التي لا تبارح المكان، فأعداد المقاهي هنا تكاد تفوق أعداد الناس، يبدو جلياً أن لا شيء يمكن فعله أكثر من ارتياد أحدها وتمضية الوقت.

«مع الوقت تزداد البطالة في مصوع وخاصة بين الشباب، كان الميناء يستوعب أعداداً كبيرة منهم، لكنّ الحركة تقلصت فيه كثيراً، بسبب ظروف الحرب، ونقل عملية الفرز إلى العاصمة»

لم أفهم جملة سعيد الأخيرة، قبل أن يواصل شرحه:

«صدر مؤخراً قرار يقضي بأن تُنقل كل البضائع من السفن إلى العاصمة مباشرة ليتم فرزها هناك ومن ثم نقلها إلى وجهتها النهائية داخل البلاد»

«حتى لو كانت وجهتها النهائية هنا في مصوع؟». .

«حتى لو كانت وجهتها النهائية هنا». .

لم أكن بحاجة لأسأل لماذا، فقد كانت نبرة سعيد تحمل الاستغراب نفسه.

واصلنا سيرنا باتجاه ختمية، وواصلت المقاهي المقامة على عجل انتشارها على جانبي الطريق، لم يكن الأمر يتطلب أكثر من التخلي عن إحدى غرف البيت لتحويلها إلى مطبخ، ونثر عدد من الكراسي أمامها، كان واضحاً أن وضع لوحة واختيار اسم للمقهى هو نوع من الترف لم يصل إليه أهالي مصوع، كانوا فقط يبحثون عن طريق ثالث، بعد أن سد الميناء الحياة في وجوههم، عوض أن يشرع أبوابها، ولم يكن من اللائق أن يمدوا أيديهم تسولاً أو احتيالاً.

«الغريب أن أهالي مصوع مشهورين بأنفتهم لحد الكبر، حتى مع أوضاعهم المعيشية الصعبة، مرد ذلك كما يقال إلى البحر الذي غرس رحابة في نفوسهم تفوق ضيق أحوالهم، يقال أيضاً إن ذلك سببه إحساسهم بتفوق كونهم الوجهة الأولى لصحابة الرسول خارج الجزيرة العربية». .

كان واضحاً أن سعيد يرفع من معنوياتي بعدما رأى انعكاس وضع المصوعيين على نفسيتي، كذلك فعلت سمراويت:

«الآن عرفت سر شوفة الحال اللي عندك». .

بلغنا ختمية. كان حيّاً منهكاً، بدت بيوته وقد أعياها الزمن وغياب أصحابها، تداعى معظم البناء وحلّت محله صفائح معدنية صدئة غمرتها الثقوب، تستر جوانب وتعجز عن ستر أخرى.

حتى أشجار الحي ذابلة، كان واضحاً أنها تعاني من عطش مزمن لا ترويه بحار الدنيا، بالكاد تمر بها نسمة فتحرك بضع وريقات فيها، لا أعلم ما إذا كانت الأشجار هنا تعيش حالة انتظار مماثلة لما يعيشه الذين غادروا، لا أعلم أيضاً ما إذا كان حالها هذا فعلاً طارئاً أصابه التمدد حتى أصبح هو الأصل، لا أعلم. فقط أشعر أن ثمة تقاطعاً بين أشجار ختمية، وأرواح من غادروها، هناك في أقصى بقعة قصية يسكن حنين قاتل، وعطش لا ينتهي.

«هل تعرف أين يقع منزل آل سيد؟». .

عقد الرجل حاجبيه وهو يفكر في سؤال سعيد، قبل أن يرد بالنفي، كرر سعيد محاولته مع ثان وثالث دون أن تتغير الإجابة.

كنت قد تركت مهمة البحث عن بيتي لسعيد لكني أردت فقط إخباره أنه يبحث في الاتجاه الخاطئ، كنت أتفحص وجوه من يقوم بسؤالهم، ثمة فرق في الملامح يجعلني أخمّن أنهم طارئون على المكان، كان شيء ما ينقص وجوههم كي يكتمل إحساسي بهم. بمصوعيتهم.

واصل سعيد بحثه المضني، بينما ركزتُ اهتمامي على وجوه الناس، كنت أبحث عن شيء لا أملك وصفه، فقط كان إحساسي

يقودني إليه، لمحت شيخاً يرتدي بنطالاً وقميصاً ويعتمر عمامة بيضاء مائلة، كان يدخن بشراهة، ويكثر من تعديل ياقة قميصه المهترئة، تخيلت كم كان أنيقاً أول مرة، قبل أن تتمدد كل الأشياء الطارئة في مصوع.

«سعيد حاولْ مع ذلك الرجل»

لم يستغرق الأمر كثيراً، بدا الرجل وكأنه يستعرض ذاكرته الحية:

«نعم أعرف جدك وأباك وكل عائلتك، أعرف جدتك حليمة، لطالما أكلنا من يدها، بيتكم ليس بعيداً من هنا، لكن أخبرني كيف هو حال أبيك وعمك؟»

«توفي والدي منذ خمس سنوات، وسبقه عمي قبل ذلك بست سنوات»

«يا سلام» . .

يا سلام . . تذكرت هذه الكلمة الفريدة عند الإرتريين، وحدهم ربما من أفرغوها من مضمونها الاحتفالي، لتصبح مترعة بالأسى، لتقطر فقداً ولوعة وحرماناً. يكفي أن ينطق بها أحدهم، يمد الألف بمقدار صدمته، فيصلك حزنه النبيل نقياً طازجاً لم يمسسه سوء.

يا سلام، تتجاوز كل مخارج الحروف لتخرج من عمق الروح . . من آخر نقطة فيها، وقد تركتْ فراغاً بحجم الفقد. وحدها هذه الكلمة تتنزل برداً وسلاماً على متلقيها، فيشعر بصخب المتعاطفين في أحلك لحظات الوحدة، وحدها تمده بالدفء، بعد أن يكون الصقيع قد استنزف روحه، وتركها على قارعة حزن جانبي، لم يعتد الأقربون ارتياده.

بثقة يسير بنا الشيخ نحو البيت، لا تربكه بيوت الصفيح المتراصة ككراسي العزاء الفارغة، متشابهة في الهم.

شعرت كم يبدو الطريق إلى البيت منتشياً، بعد أن عادت الأقدام لتغتسل بغباره، لا بد أن الوحدة قتلته طوال ما مضى من انتظار وأوغلت فيه ذات العطش.

ربما لا يكفي أن أسير في هذا الطريق، يجدر بي أن أحبو عليه، أن أقترب منه حد الالتصاق، هكذا فقط قد يجد لعطشه معنى، ويكتب نهاية تليق بانتظاره.

«هذا بيتكم». .

كانت نبرة الشيخ حاسمة كما إشارة يده، لكني كنت مشتتاً بحيث لم أستوعب تماماً أي بيت يقصد، التفتُّ إلى حيث أشار، لم تسعفني نظراتي الحائرة في الوصول إلى نقطة محددة، كنت كمن يملك عينين من منشور زجاجي، تتداخل فيه الأشياء وتتلاشى حدودها الفاصلة. .

«أين؟». .

لم يجب الشيخ، كان يقف أمام الباب مباشرة، لم يترك لي فرصة أن أؤخر هذه اللحظة ريثما أكبر قليلاً، أبتلع بضع سنوات إضافية، عشر، عشرون وحتى مئة، لعلي أنضج بما فيه الكفاية لأقف أمام هذا الباب الذي يواري قصصاً وحكايات لطالما أنعشت ذاكرة المغتربين ونأت بها عن الضمور.

كان باباً خشبياً كهلاً، لم أكن بحاجة لأحصي عدد دوائره كي أصل لعمره التقريبي، كان كتلك الأشجار المعمرة، تعيش في زماننا بينما تضرب بجذورها في زمان آخر، موغل في الصبر والانتظار.

طرق الشيخ بقوة على الباب، شعرت بالوجع، تمنيت لو يترفق أكثر بهذا الواقف منذ وداع أصحابه، وكأنه بوقوفه هذا يقبض على لحظة الوداع، يكثّفها بحيث لا يعود بالإمكان أن تتسرب ويتسرب معها مبرر الانتظار.

«هل يسكنه أحد؟»..

لم أكن معنياً كثيراً بسؤال سمراويت، لم يتبادر إلى ذهني حتى، إذ لا يمكن لأجساد طارئة أن تشغل مساحات هذا البيت كما يفعل أهله، لا يمكن لها أن تروي ظمأه إلى خطاهم، إلى ضحكاتهم، إلى رائحة القهوة تعلن ميلاد يوم، أو تأذن بختامه. لا يمكن لطارئين أن يشبعوا هذا الشبق لتفاصيل لا يمكن استنساخها.

فتح طفل الباب قبل أن يهرول لمناداة أمه، شرح الشيخ للمرأة أنني مالك المنزل وأريد إلقاء نظرة عليه، لم تمانع.

عبرتُ الباب إلى ساحة ترابية واسعة، لابد أنه المكان المفضل لشرب قهوة المساء، هنا كانت العائلة الكبيرة تعيد نسج أحداث اليوم حكايات لا تمل على وقع طقوس «الجَبَنة».

هنا كان جدي يستقبل «الشماقلّي» للبت في قضية تخص الحي أو القبيلة، لم يكن الأعيان ليخرقوا قراراً بعد انقضاء اجتماعهم هذا.

هنا كانت جدتي تربط عنزاتها الحبيبة، حتى إذا جاء زائر مفاجئ، استلت سكيناً وجثمت بركبتيها على إحدى حبيباتها، لتقدمها لذلك العابر.

كانت سمراويت حريصة على تصوير كل جانب في البيت، كان هذا أعظم ما يمكن العودة به إلى المنتظرين في الجانب الآخر من البحر. سألتُ عن المطبخ، عن مملكة أمي، لا بد أنه المكان الأكثر

شوقاً لأنفاسها، لأصابع يدها، لصخب الأواني قبيل الغداء، للزقني يشعر من فاته باليتم.

انتهى تجوالي في البيت، كنت كمن تجول في رأس والدي ووالدتي، كمن أعاد تفقد أشياء جدتي حليمة. تمنيت لو أستطيع المبيت في إحدى غرف البيت، في ساحته الترابية هذه.

من جديد وصلتُ إلى الباب، هذه المرة كنت مغادراً، ربما هو قدر هذا الباب، أو قدري أنا، أن أعطيه ظهري مجدداً.

.. بأن تهربوا للأمام

وأن تزحفوا للجحيم ببطء

ولكن بكل انتظام!

م. الشيخ

يعبر الباب الرئيسي. بالكاد تحمله قدماه، تتكئ إحدى يديه على عصا بينما الأخرى تمسك ملفاً يضيق بأوراق مبعثرة، توشك عمامته على السقوط، يحتار كيف ينقذها، يرفع اليد الممسكة بالعصا.. يسقط الملف وتتبعثر الأوراق في كل اتجاه.

يصلح عمامته جيداً، يستجمع غضبه ويرمق أوراقه بنظرة حانقة لا تخلو من عجز. يهبُّ أكثر من شخص للملمة أوراقه ومساعدته على الجلوس، يشكرهم بصوت مخنوق، وينتظر دوره كالآخرين.

أمرر الوقت في انتظار دوري بمطالعة الوجوه الكادحة، تكتظ الصالة بالمراجعين، يقلّ الهواء أكثر كلما دخل كادح جديد، لم تعد الكراسي تفي بحاجة الأجساد المتعبة، بدأ طابور جديد يتشكل من الواقفين معظمهم نساء. يتحاشى الجالسون النظر إليهن حتى لا يضطروا تحت ضغط الحرج أن يتبادلوا الأماكن.

كان الجميع صامتاً، مشغولاً بنفسه، وحدها الفضائية الإرترية كانت تعيش لحظة مختلفة، صوت الموسيقى المنبعث منها نشاز وسط هذا الجو الكئيب.

يحمل الجميع جوازات سفرهم، يتشبثون بها أسوة بأرواحهم،

وحدها الجوازات باتت تدل عليهم، على وجودهم، على استمرارهم مواطنين صالحين.

يمر أحد الحراس وكأنه يحلّق فوق الرؤوس، منشغل بربطة عنق تعيسة، يجول بنظره بين المراجعين كمن يوزع عليهم فضل خيره، يلمحه شخص يعرفه فيهرع إليه طالباً مساعدته، بالكاد يتعرف إليه قبل أن يعده ببذل ما يستطيع. يمر موظف آخر أعلى مرتبة فلا يبدو أن من بين الحاضرين من يستطيع التحدث إليه.

أعود إلى وجوه الكادحين من جديد، أعود إلى الشيخ فأجد النوم قد غلبه، ينطلق صوت النداء الآلي، يوقظه أحد الأشخاص ويساعده على النهوض، يسير بتثاقل إلى موظف الجوازات المتجهم، يهمس أحد الجالسين: ليت الشيخ ذهب إلى الموظف الآخر فهو أكثر رأفة، تمر دقائق قليلة، قبل أن يلملم الشيخ أوراقه ويعود لمكانه. يجد المكان وقد جلس عليه آخر، يسأله أحدهم: ها؟

«رفض التجديد.. لازم أدفع ثلاثة آلاف.. قلت له ما عندي.. قال مو شغلي»

جاء دوري متأخراً، فمعظم المراجعين كان قد جاء فجراً لتسجيل اسمه على بوابة القنصلية قبل أن يعود لاحقاً تحاشياً للزحام، وحدي ربما من كان يجهل هذا الإجراء الذي فقد معناه، فالجميع أصبح يحضر فجراً ومن ثم يعود في التاسعة.

نهضتُ بأوراقي إلى الشباك الآخر الذي سمعت الرجل ينصح به، سلّمت، لم أسمع جواباً..

«ايش عندك؟»..

«تجديد جواز»..

«أوراقك ناقصة روح اعمل خطاب وتعال»

أذهب إلى موظف اتخذ أحد الزوايا مكتباً له، أنتظر دوري مجدداً، لأكتشف أن كل ما يقوم به هو كتابة خطاب بالتغرنية أو العربية، لم أستطع تمييز الفرق بين اللغتين فقد كان الموظف كمن يكتب بأصابع قدميه، سألته إن كان بإمكاني أن أكتب خطابي بنفسي..

«طبعاً بس لازم تدفع حق الورق»

عدت للشباك بعد أن قررت ترك الموظف يكتب خطابي، خشيت أن يختلط الأمر على موظف الشباك حين يرى خطاً جديداً أو بالأحرى لغة جديدة.

«فين تشتغل؟»

كان واضحاً أن الرجل يقلّب الأوراق دون أن يقرأ محتواها، كانت نظراته تتنقل بين الورق وبيني، شعرت للحظة أنني أمام محقق يريد سبر دواخلي قبل أن يباغتني بالسؤال الذي يرعب الإرتريين وكأنه سؤال القبر:

«كم راتبك؟»..

«مكتوب عندك»

لم يعجبه جوابي، لذا أعاد تقليب الأوراق والنظر إلي بحدة هذه المرة، أحسست أنه يبحث عن طريقة أخرى للمداهمة:

«كيف صحفي وراتبك هذا بس؟»

احترت بحثاً عن إجابة تنقل إليه بعض غيظي، أردت فقط أن أخبره كم هو صفيق، لكنني تراجعت حين أدركت أني سأحقق رغبته وأمده بما ينتظر إن أظهرت غضبي.

«للأسف رواتبنا ضعيفة عكس ما يظن الناس»

انتقل إليه الغيظ، بدت ملامحه نافرة، استنتجت أني حرمته من متعته السادية في تعذيب أبناء جلدته

«طيب راح تدفع اثنين في المية عن كل سنة وراح تدفع لأسر الشهداء وراح تدفع لمرضى الكلى وراح تدفع. . »

أخرجت المبلغ المطلوب بهدوء دون أن أبدو غاضباً من قائمة الطلبات الطويلة، كان يحدق في محفظتي بحنق، شعرت أنه يتمنى لو زاد المبلغ أكثر

«خلاص بكرة تستلم الجواز بعد الظهر لو ما ظهرت عندك مشكلة»

لم أسأله عن نوع المشكلة التي قد تصادف تجديد جوازي، أعطيته ظهري وتركته يلوك غضبه، كان واضحاً أنه أراد أن يجرني لمنطقة أبدو فيها محتاجاً إليه.

طوال عودتي إلى البيت كنت أفكر في حال الآخرين، أولئك الذي لا يملكون شيئاً يقدمونه للقنصلية، على الفور أخرجت هاتفي واتصلت بأحمد، وحده كان قادراً ربما على استيعاب غضبي

«بما أنك عضو في الشعبية ممكن تفهمني ليش كل هذه المبالغ اللي ندفعها». .

«هذه ضرائب زي كل دول العالم». .

«لا مو مثل كل دول العالم. . الإرتري هنا يا دوب يعيش ويعيّش عياله، مو معقول اللي يبقى من المدارس وتجديد الإقامة يروح لتجديد الجوازات، وبعدين في بقية العالم الدفع مقابل التمتع بالخدمات، تقدر تقلي ايش الفايدة من الضرائب». .

«روح وعيش في إرتريا عشان تتمتع بهذه الخدمات، أو تحب يوصلوها لك ديليفري»

لا أعرف لماذا أشعر أن أحمد يبدو أكثر ذئبية حين يتحدث من موقعه كعضو في الشعبية، حتى خفة دمه تتلاشى ليصبح ثقيل ظل بشكل لا يطاق. لم أستطع أن أخبره بشعوري هذا، أغلقت الخط واتصلت بمحمود، كان الرجل المناسب ليشاركني الغضب:

«يا عمر هذه مو قنصلية هذا مركز جباية، يعني صاحبك بيقول ضرائب وخدمات، يا ريت تقول له قبل الخدمات احنا بندفع وما عندنا رأي في أي شيء في إرتريا، عمرك سمعت عملوا استفتاء أو أخذوا رأينا بأي شكل قبل ما يقرروا شيء؟ يا أخي رأيك ووجودك ما له داعي أصلاً باستثناء جيبك، جيبك وبس»

فاق غضب محمود غضبي، تلاشى إحساسي بالضيق وحلت محله كل علامات الاستفهام التي ملأني بها صديقي الغاضب، تمنيت لو أعاود الاتصال بأحمد، لكني عدلت عن الفكرة بمجرد أن خطر لي أني سأكون حينها كساعي البريد بين شخصين مختلفين حول الوطن، فهماً وشعوراً وانتماء.

في المساء التقيت بمحمود، كنت أود التخلص من علامات الاستفهام الكثيرة، لكني إضافة إلى ذلك كنت أود فهم هذا الرجل أكثر، كيف يتحرك بهذا الكم الهائل من الغضب، حتى من دون أن يبدو عَليه

«لو كنت مكانك كان تلاقي الدخان طالع من رأسي»

يضحك محمود، ثم يعود إلى سلخ الشعبية.

لا يكف أبداً عن ممارسة غضبه كوِرْدٍ يومي لا يستقيم إيمان

بدونه. كان يؤمن أن الغضب بمقدوره وحده أن يحافظ على مستوى الوطنية في دمه، وأنه متى ما فقد هذا الغضب أصبح كالآخرين، ومحمود لا يكره شيئاً في الدنيا بقدر أن يصبح كالآخرين.

«أنت عارف اليوم ما نقدر ندخل الجالية»

«ليش.. لا تقلي بينغو برضه.. اليوم مو جمعة»

«اليوم يوم أوبك»

اكتفى محمود بملامح الجهل التي غطت وجهي، لذا أكمل دون أن ينتظر سؤالاً:

«اليوم اجتماع لسائقي «الوايتات».. شاحنات شفط المجاري أعزك الله.. أو منظمة أوبك الإرترية.. الجماعة دي بتدفع تبرعات بالملايين للحكومة.. مو زيك زعلان عشان دفعت كم ألف لتجديد الجواز»

«برضو ما فهمت»..

«الشفاطة زي ما بيسموهم بيكسبو كثير، وطبعاً شغلتهم هذه محد يقرب جنبها لا تقلي سعودة ولا غيره، يكفي تعرف أن 3% من جدة بس فيه صرف صحي والباقي كله على حسب همة الشفاطة.. واليوم اللي بيعقدوا فيه جمعيتهم يكون يوم استنفار كبير والأولوية لهم أو لجيوبهم بمعنى أصح.. يعني باختصار أنت الصحفي اللي فرحان بنفسك تعتبر مواطن درجة ثانية قياساً بأي واحد من الشفاطة العظام.. شفت العالم إلخ... دي»

أكاد أموت ضحكاً من غضب محمود، يضحك معي قليلاً قبل أن يعود للغضب نفسه بطريقته وحده:

«معليش على الكلام اللي كله روائح ده»

يأبىٰ دمي أن يستريحَ
تشدُّه امرأة وريخ

م. الثبيتي

كلما توغل الليل أكثر في مصوع منحها فرصة أكبر كي ترتاح من حريق النهار.

تبدو المدينة في الليل كعامل فرغ للتو من مهامه الشاقة، لا شيء يشغله سوى اللحاق ببعض الراحة قبل أن يبدأ يوم شقاء جديد.

تناولنا العشاء في الطابق العلوي للفندق، كنت مشوشاً بعض الشيء، أستمع إلى ضجيج روحي، بينما كانت سمراويت منطلقة كالعادة، تتحدث كثيراً وتضحك أكثر، وكان سعيد منقسماً بين حالتي وحالتها، كنت ألتفت إلى سمراويت، أبتسم وأهز رأسي دون أن أكون واعياً تماماً لحكاياتها، أظنها كانت تتحدث عن أيام الدراسة والمقالب التي كانت تقوم بها لزملائها ومدرسيها على السواء.

«وأنتْ.. ألم تكن شقياً في تلك المرحلة؟»..

كان السؤال موجهاً إليّ بالذات، أيقظني من حالة نصف الانتباه تلك، من خدر لذيذ يسري في جسدي دون أن يصل مداه إلى الآخرين. شعرت كمن تم إيقاظه بماء بارد، فلا هو منتبه تماماً لما يجري حوله ولا هو قادر على العودة مجدداً لحالته الأولى.

«دعينا في البداية نسمع من سعيد»..

بالكاد استجمعت لؤمي وطرحت هذا الاقتراح علّي أكسب بعض

الوقت، كانت الفرصة الوحيدة للاستمرار مع ذاتي، مع أصواتها الصاخبة، لم أكن بحاجة إلى المغادرة خارج حدود روحي، كانت روحي حينها مترامية الشعور، بحيث لا تحيط بها مسيرة شهر من التأمل.

«لم أعش حياة دراسية بالمعنى الحرفي للكلمة، درست في الكتاتيب ثم أكملت في الميدان لذا لم يكن وارداً مثل هذا النوع من الحكايات»

هكذا فقط انتقل الدور إلي، أسرع مما يجب، خيّب هذا المناضل أملي، كنت أؤمل النفس بساعات من الحكايات الممزوجة بتعليقات سمراويت الصاخبة، بينما أغوص مجدداً فيَّ، أتسكع في الشوارع الخلفية لداخلي، أتنقل بين ضوء وعتمة، وعتمة وضوء، أجرّب مسارات جديدة لم أسلكها سابقاً، أستمتع بشعور الرهبة يختلط بمتعة الاكتشاف، أطلق أصواتاً وأترقب صداها، أعاود الكرّة وكأني أتوقع شيئاً مختلفاً كل مرة.

يعجبني هذا الجنون، يليق بالزحام الذي أصنعه وحدي. لا يتاح دائماً أن يقترب الشخص من نفسه، أن يتغلغل فيها، أن يلامس قعرها البارد الحارق، يوقف ساعته، يستبدلها بتوقيته الداخلي، حيث لا يتطلب دخول وقت خروج الآخر، تتداخل الفصول، يتعانق الليل والنهار، تتخلى الأشياء عن منطقها، يبقى منطق الروح مالك كل شيء ومسيّره. لا يحدث هذا كثيراً، لكنه حين يحدث لا نعود نعيش شيئاً آخر غيره.

«ها حبيبي لا تقل لي أنك أيضاً لم تتح لك فرصة ممارسة هذا النوع من الحياة»..

لا يتسع هذا الزحام لأحد غيري، بينما أجد سمراويت وقد

اقتربت كثيراً، أضحت بيني وبين أنفاسي، أكاد أسمع وقع خطواتها يتردد صداه في الأسفل، هنا إلى جواري. أعادتني جملتها إلى السطح، خشيت على داخلي أن يُنتهك مرتين، بعد أن ولغتُ فيه بما يكفي.

أي نوع من الحياة كانت سمراويت تقصد؟ لماذا اختارت هذه الكلمة بالذات؟ لماذا اختارت أن تتقاطع مع الصخب الذي يموج بداخلي؟ كان بإمكانها أن تسألني بشكل مباشر عن مقالب الماضي..

«الآن وهنا فقط عرفت أنه لم تتح لي ممارسة أكثر أنواع الحياة حياة، لم يتح لي سوى التحرك ضمن إطار خشبي رباعي الأضلاع، بينما تموج الصورة في الداخل بغنى التفاصيل وتنوعها، اكتفيت بالتنقل بين أضلاع الإطار، ظننت أني أمارس الحياة طولاً وعرضاً، بينما لم أكن في حقيقة الأمر سوى بائس على حوافها، لم يلحظ حتى مروره في الطريق ذاته كل مرة.

هنا يا سمراويت كان بالإمكان أن أعيش حياة حقيقية، رغم الفقر، رغم درجات الحرارة الخانقة، كنت سأبدو كمن يعيش خارج الحياة، لكن هذا أفضل مئة مرة من أن أبدو كمن يعيش بداخلها وهو لم يقربها قط.

هنا يا سمراويت، للأشياء طعمها الأول: الحزن، والفرح، الحب، وحتى الغضب. نعم هنا بإمكاني أن أغضب، أن أصرخ دون أن أستأذن أحداً، أن أعيش بدائياً أو متحضراً، غنياً أو فقيراً لا يهم، المهم أن أقوم بكل شيء دون أن أتسول الحق في ذلك، أو أمارسه كمستخدم ثانٍ.

هنا يا سمراويت سيظل على الدوام «هنا»، حتى لو جُبت العالم

بأسره، لن أتكئ على خارطة أخرى لأقول عنه «هناك»، سيظل ملتصقاً بكل ما هو آني وحاضر وقريب، سيظل تحت قدمي وفوق رأسي، لن يبتعد أكثر من غمزة أو إيماءة.

هنا سأموت كما يموت الناس، من الفقر، أو المرض، وربما دون سبب، سأموت مرة واحدة، وقد لا أفعل أبداً إذا ما تركت خلفي من يذكرني، لكني حتماً لن أموت من الذل ينخر داخلي دون أن يجد له مسرباً يقوده إلى الخارج.

هنا على الأقل سيكون الوضع مختلفاً عما جرى لحمزة الذي خرج من بيته مبتهجاً ذات انتصار، حين لم يترك لنا «ماجد عبدالله» شيئاً غير البهجة نخيط بها كل لحظاتنا. خرج كما فعل الجميع فرحاً بوصول «المنتخب» إلى نهائيات 94، خرج مرتدياً قميص «أمين دابو»، وحده الأهلي كان بحجم الوطن عشقاً وفناً، قبل أن يتردى بعد ذلك أسوة بأشياء كثيرة. أوقف شرطي السيارة الممتلئة بالفرحين وحمزة، صفعه حين علم أنه مختلف كثيراً، أكثر مما يعطيه الحق في اجتراء البهجة بما فعله ماجد. مذ ذاك الوقت وحمزة يشجع كل المنتخبات.. كل المنتخبات بلا استثناء، حين تلعب ضد المنتخب السعودي!»

«حبيبي مع كل هذا الأسى لا يبدو فعلاً أنك وجدت وقتاً لعمل مقالب في الآخرين، لماذا كل هذا الحزن؟، يجدر بك أن تكون سعيداً على الأقل أنت في مكان تحبه، ومع أناس يحبونك»

«ليس حزناً خالصاً يا سمراويت، إنه نوع من الشجن، تختلط فيه مشاعر متناقضة، سعادة غامرة وحزن أصيل. لهذا ربما أشعر بحالة عدم التوازن هذه، أشعر بأشياء ترفعني إلى الأعلى، وأخرى تشدني إلى الأسفل، وما بينهما تكاد روحي لا تجد لها مستقراً تركن إليه..

مصوع اليوم أمدتني بدفقة فرح لم أعرف مثلها في حياتي، لكنها أيضاً وخزتني بحزن لامس عظامي. مجدداً أقترب أكثر مما ورثه المصوعيون من مدينتهم، تلك القَسَمات الهانئة بحزنها النبيل. لذلك ما إن ينتهي المصوعي من ضحكته المجلجلة حتى تعود ملامحه الوقورة لتكتسي جلال الحزن»

«هذه صفات الإرتريين عامة، ربما لو أتيح لنا أن نزور مدناً أخرى لرأيت ذات الشيء»..

«ربما يا سعيد، قد أكون بحديثي عن مصوع أقوم برسم الصورة الأكبر لعموم الوطن، لكني ولأسباب وجدانية بحتة أعيش حالة التماهي هذه مع هذه المدينة بالذات، لا أدري ربما لو كنت من أسمرا أو كرن لفعلت الشيء نفسه معهما»..

«ربما من الأفضل أن تتماهى مع سريرك الآن لأننا مضطرون أن نخرج مع طلوع الفجر إلى رأس مِدر قبل أن تبدأ الشمس في مد سياطها»

يغادر سعيد، ألمح في عيني سمراويت شبقاً مستعراً:

«لو كنا بمفردنا لأخبرتك منذ البداية أن علاج حزنك عندي»..

«هل قرأتِ إحدى عشرة دقيقة»؟..

«لا. لا تقل لي إنك تصدق هذيان ذلك العجوز البرازيلي!»..

«لا أصدق بقدر ما أفكر.. كان باولو كويلو يصف حالة أو شعوراً قد نمر به يخلق نظرة مختلفة إلى الجنس، ليس بالضرورة على الدوام، لكنها تبدو منطقية أحياناً، لا أتحدث هنا تحديداً عن فكرته أن الجنس بلا عاطفة هو عنف نمارسه على أنفسنا، أنا أتحدث عن وجود صور مختلفة تعبر عن الجنس غير تلك الصورة الوحيدة المعروفة»..

«اسمح لي أن أخبرك أن عجوزك هذا يمر بحالة ضمور عاطفي، لكنه أراد أن يفلسفها كي يمنحها بريقاً يتيح له أن يتصالح مع نفسه ومع الآخرين في ما يخص تخلفه العاطفي. هل تمر بحالة الضمور هذه؟»..

«أنا؟ لا أبداً. قلت لك أنا لا أصدق بقدر ما أفكر»..

«إذاً تعال»..

هذا الحنينُ إليكِ عَطِل فيّ اغنيتي

أهداني

سكوتاً لا يُؤرّخ للعذابْ

م. الشيخ

أن تكون إرترياً يعني بالضرورة أن تكون مدمناً على «الجَبَنة»، لم أكن بحاجة لأسمع هذه القاعدة من أحد، كانت أوضح من أن تقال، فعشق الإرتريين للقهوة بطقوسها الخاصة مثّل ملمحاً بارزاً.

«طُعُم بُون»..

أقولها منتشياً وأنا أعيد فنجاني الفارغ إلى جدتي لتملأه من جديد، لا شيء مثل هذه الكلمة يشعر الإرتريات بالزهو، فهي إقرار ذكوري خالص بروعة القهوة، وهو ما يعني ضمناً الاستمتاع بالرفقة طوال مراحل الطقوس.

تحمّص جدتي قهوتها على مهل، تمنح كل حبة فيها ما تستحقه من رعاية واهتمام، حتى إذا بلغت حبوب القهوة نصف نضجها، حملتها إلينا تسابق دخانها المنبعث، تطوف علينا واحداً واحداً، وهي تهز الوعاء المعدني لتستمر القهوة في بعث موسيقاها المميزة، نمد أيادينا كمن يحاول القبض على أكبر قدر من الدخان قبل أن يتلاشى، وحدهم الإرتريون يقدّسون رائحة القهوة، وصوت ارتطام حباتها قبل أن يسجلوا أنفسهم عشاقاً للطعم.

ما إن تنتهي جدتي من تبخيرنا بدخان القهوة حتى تسارع لإكمال

تحميصها قبل أن تبرد، في هذه الأثناء تقوم إحدى الحاضرات بتجهيز الجَبَنة ذلك الوعاء الفخاري الذي تشتهر إرتريا بتصنيعه والذي تحول في ما بعد ليصبح اسماً لقهوتها المميزة.

إلى جانب القهوة تقوم الجدة بتحميص حبوب الذرة، إذ نادراً ما تقدم القهوة بمفردها، وللذرة رمزية في المخيلة الإرترية، فبها كانت الأمهات تستقبل أبنائها العائدين منتصرين من ساحات القتال، لهذا ربما أصبحت الذرة في ما بعد طقساً من طقوس الفرح، تنثر في وجوه العروسين.

القهوة الإرترية تشبه التركية إلى حد بعيد، لكن طقوسها تحتم شرب ثلاثة فناجين منها، «أول» ويكون مرّكزاً، ثم «بركة» وهو أخف قليلاً، وأخيراً «خضر» خاتمة الفناجين، وهنا لا بد من تسليم الفنجان فارغاً ومصحوباً بالاستحسان والامتنان:

«طُعُم بُون»..

لا ينتهي الأمر هنا، فالحرص على استحضار هذه الطقوس، هو استحضار للذاكرة وصون لها من أن تموت.

لم يكن بوسع الإرتريين أن يحملوا معهم شيئاً أثناء النجاة بأرواحهم، لكنهم حين يتحلّقون حول الجَبَنة، تغدو بيوت المهجر الإسمنتية الضيقة مفعمة بعبق الوطن وتفاصيله الغنية، يعود الحَمَام ليملأ باحات البيوت المترامية، تضج الشوارع بالصبية يلاحقون أحلامهم البسيطة تملأ عليهم الكون، لا ينافسهم في ذلك إلا الكهول لا يتوقفون عن سرد حكاياتهم مهما كثرت خطوط الزمن على وجوههم.

من خلال الجَبَنة تتقلص مساحات الاغتراب في النفوس، تصل إلى أدنى مستوياتها، يتوقف الزمن عند لحظات أصيلة، باعدت بينها

وبين أصحابها ظروف التاريخ والجغرافيا، حتى غدت معجزة يتطلب تحقيقها طابوراً من الأولياء والصالحين.

تختصر الجَبَنة ملامح الطيبين، تمدنا بأوصافهم، فهي مثلهم سمراء دافئة، وهي مثلهم في القرب والألفة والحميمية، وهي مثلهم باقية حين يذهب كل شيء.

تنشغل جدتي بإعداد القهوة وتقديمها بينما تدور أحاديث كثيرة معظمها يسترجع أيام الوطن ولياليه، لم أكن مهتماً كثيراً بحضور هذه الجلسات، لكني مؤخراً ومع عودتي التدريجية كي أصبح إرترياً واظبت على قهوة جدتي وحكاياتها، كانت تفرغ ذاكرتها، بينما أقوم بتأسيسها من العدم.

«كان يومنا في خَتْمية ينتهي بعد صلاة العشاء، مع مغيب الشمس يعود الرجال الذين خرجوا فجراً إلى أعمالهم، تجتمع العائلة كلها في بيت جدك، بيوت العائلة كانت متلاصقة، وبينها أبواب مشتركة، نجلس جميعاً في فناء البيت، يتكئ جدك على سريره، بينما البقية يحيطون به جلوساً، لم يكن يتخلف أحد عن هذا اللقاء، يحضر والدك وعمك وخالك وزوجاتهم، كما يحضر أحياناً بعض الجيران المقربين، كان الوضع مختلفاً عما يجري هنا، لم نكن نجد حرجاً في أن يلتقي الأقارب رجالاً ونساء، لم نعرف أنه حرام إلا حين قدمنا إلى هذه البلاد، وكأن القطيعة بين الأقارب ليست حراماً». .

هنا تتدخل أمي:

«أستغفر الله. . الحمد لله أننا عرفنا الحلال والحرام. . كنا في جهالة». .

لا يروق الرد لجدتي لكنها تكمل:

«حين يتحدث جدك، نصمت جميعاً، كان قليل الكلام، ومتعته الأكبر هي الاستماع لنا، كان للنساء الحق في الحديث وحتى الاعتراض»

تلتفت لأمي بمكر:

«ورغم أن هذا لم يكن حراماً، فقد تركناه أيضاً حين جئنا إلى هنا»

على الدوام كانت جدتي تمثل الفكرة التي تقول إننا سنعود إلى إرتريا، ولا ينبغي لنا التورط أكثر في عادات وطباع السعوديين، كانت ترى أننا إن فعلنا، فسنبدو كالغرباء حين نعود، لم يكن شيء يزعزع اعتقادها بأن الارتريين في دول المهجر لا يزالون متمسكين بكل شيء خرجوا به من إرتريا.

على العكس من جدتي كانت أمي ورغم أملها في العودة إلى إرتريا ترى أننا أصبحنا جزءاً من هذا المكان، كما ساهم تدينها في تعزيز تلك الرؤية، إذ «لا يوجد مكان في الكون يضاهي مجاورة الحرمين، حتى لو كان الوطن».

وما بين جدتي وأمي كان أبي يحمل الرأيين دون تعصب لأي منهما.

تناولني جدتي فنجاناً جديداً بعد أن أضافت عليه ملعقة من السكر..

«أمك المطوعة هذه كانت تقود السيارة في شوارع أسمرا، وكانت ترتدي الجينز»..

أنظر لأمي بذهول «والله؟».. تبتسم بزهو يؤكد القصة، لكنها تعود سريعاً لتستغفر من أفعال «الجاهلية».

«خصص جدك غرفة منزوية في البيت لإيواء الثوار، كنت أقوم برعايتهم، وتقديم الطعام لهم، في إحدى المرات اضطررت لإخفاء جريحين منهم لثلاثة أيام متتالية، جاء الإثيوبيون وفتشوا المنزل دون أن يعثروا عليهما، وفي نهاية اليوم الثالث غادر الجريحان دون أسلحتهما، وعادا بعد ذلك لأخذها». .

«نعم يا عمة أتذكر ذلك اليوم حين حاول أخي العبث بالأسلحة فتلقى توبيخاً عنيفاً منك على مرأى من عمي ووالدي. . خالك كان شقياً يا عمر»

ملاحظة أمي تنقل حديث جدتي إلى منحى آخر:

«خالك كان متيماً بالسينما، الوحيد من يكسر عادة الأسرة في النوم المبكر، كانت السينما في مصوع تعرض أفلاماً هندية، ومنها أتقن خالك لغتهم. كان يريد الزواج بصديقة أمك زوديتو المسيحية لولا رفض جدك القاطع. ثم جاءت الحرب فحالت تماماً دون رغبته، استقرت الفتاة عند أهلها في أسمرا، وخرج هو إلى السعودية»

تعود أمي للحديث بنبرة يملؤها الحنين:

«من مثل زوديتو؟. . انقطعت أخبارها منذ ذلك الوقت ولا أعرف إن كانت على قيد الحياة أم لا، كثيراً ما سألتُ عنها المسافرين إلى أسمرا ولم أجد إجابة شافية»

«ما رأيكُ أن أبحث أنا عنها؟»

لم أعرف كيف خرج الاقتراح من فمي، نظرت إليّ أمي دون أن تعلق، بينما جاء التعليق من جدتي:

«حسناً تفعل لوْ تزور بلدك، وليتك تأخذني معك». .

وعاد إلى أولِ المنحنى باحثاً عن يديهْ

تنامى بداخله الموتُ

فاخضرَ ثوب الحياة عليهْ

م. الثبيتي

في الطريق إلى رأس مدر لاحظنا أعداداً كبيرة من الأهالي تقوم بتنظيف الشوارع. كان الأمر أشبه بحملة تنظيف شاملة. طلبتُ من سعيد أن يتوقف وكذلك أرادت سمراويت، استوضحت من مسؤول يراقب العمل، أخبرني أن هذا اليوم من كل أسبوع مخصص لتنظيف المدينة بشكل طوعي، اقتربت منه سمراويت:

«كل هؤلاء متطوعين؟».

كان العدد كبيراً بحيث يصعب فهم أن تنهض مدينة بأكملها في هذا الصباح الباكر كي تنظف الشوارع، وفيهم النساء والأطفال وكبار السن وحتى المعاقين.

أكد الرجل أن الأمر برمته تطوعي، وذلك نتيجة جهود التوعية التي تقوم بها الحكومة. مجدداً سألته سمراويت:

«وما لو أراد أي شخص عدم المشاركة في عملية التنظيف الطوعية هذه؟».

ضغطت سمراويت على كلمة الطوعية وكأنها تواجه الرجل بأهم نقطة تثير شكها. جاء رد الرجل مرتبكاً بعض الشيء:

«نخضعه لدورات توعية بأهمية النظافة». .

أكمل الرجل جملته وغادر مسرعاً متعللاً بإتمام عملية المراقبة، التفتت سمراويت إلى سعيد الذي كان متنحياً يراقب استجواب سمراويت للرجل:

«لماذا يحتاج لمراقبة الناس إذا كان عملهم تطوعي بالأساس؟، وكيف لهؤلاء العجزة والأطفال والمعاقين أن يمارسوا عملاً تطوعياً وهم لا يستطيعون أصلاً ممارسة مهامهم الأساسية؟». .

كان واضحاً أن سمراويت استعاضت بسعيد عن الرجل لتواصل سيل أسئلتها، اقترح سعيد أن نغادر وأن نناقش الأمر أثناء سيرنا باتجاه رأس مدر، لكن سمراويت لم تتوقف عن طرح الأسئلة:

«ليس تطوعياً ها؟. . إنهم يجبرون الناس على تنظيف الشوارع، ومن يرفض الخروج يعاقب، ولهذا تخرج هذه الأعداد الكبيرة من المغلوب على أمرهم، وهذا هو التفسير المنطقي لوجود من يراقب عملهم التطوعي، أليس صحيحا؟». .

توقعتُ أن تُغضب حدة سمراويت سعيد، لكنه رد بكل هدوء:

«إذاً لستِ بحاجة إلى شرح أكثر».

وصلنا إلى منطقة الميناء، أجرى سعيد اتصالاً طلب فيه من أحد الأشخاص أن يسمح لنا بدخول رأس مدر. أومأتُ إلى سمراويت بأن لا تقوم بسؤاله، ما إن فرغ من مكالمته حتى تكفلت بالأمر بطريقة تضمن عدم إثارة سعيد:

«هل يتطلب الدخول إلى رأس مدر تصريحاً؟». .

«رأس مدر أصبحت الآن داخل الميناء، وباستثناء عيدي الفطر والأضحى، لا بد من الحصول على تصريح للدخول»

دخلنا رأس مدر أو رأس الأرض، كما تعني ترجمتها الحرفية، وهي المنطقة الشاطئية التي نزل بها الصحابة في طريقهم إلى النجاشي، وجدنا أرضاً محاطة بسور وفي أحد جوانبها محراب تتجه قبلته ناحية بيت المقدس. بدا المحراب أخاذاً رغم تصدعه، فقد كان ما تبقى من نقوشه العثمانية آية في الجمال، لم أنتبه إلى بقاء سمراويت عند بوابة السور..

«لا أعرف إذا كان يحق لي دخول المسجد؟»..

«بالطبع يحق لك الدخول، هذا ليس مسجداً بالمعنى الحرفي وإن كان يسمى مسجد الصحابة، فهو أرض فضاء كما ترين»

أراحني سعيد بجوابه، فلم أكن لأجد جواباً لسؤالها المحرج. بدت سمراويت سعيدة وهي تتأمل المحراب المقاوم لعبث السنين، ازدادت سعادتها حين شرحتُ لها سبب توجهه باتجاه بيت المقدس، لكنها عادت لطبيعتها من جديد:

«إذا كان الأمر بهذا القدر من الأهمية والقداسة عن المسلمين، لماذا لا يتم الاهتمام بهذا الأثر التاريخي؟..

لماذا مثلاً لا يبنى كمسجد ضخم ويكون حينها مسجداً للصحابة بالفعل؟ لماذا لا يصبح وجهة للسياحة الدينية يدر على الدولة أموالاً طائلة بدل أن يصبح أرضاً خالية داخل الميناء لا يستفاد منها؟»

صعدنا إلى سطح مبنى مجاور، قال سعيد إنه يتيح لنا رؤية أفضل لعموم الموقع، بدا البحر حنوناً أكثر في هذه البقعة بالذات، كانت أمواجه تتكسر بعيداً قبل أن تقترب وتلامس الشاطئ بوداعة وحنو، وكأنه يعيد سيرته الأولى حين حمل الصحابة الوجلين من ظلم ذوي القربى إلى عدل الغرباء في «أرض الصدق» كأمانة واجبة الأداء.

كما ناسه، لم ينس البحر تلك اللحظة الخالدة، قرون بعد ذلك وهو مبدئي في الانحياز للملهوفين، لم يكن لأهالي باصع من خيار وقتها سوى الموت تحت قصف البارجات الإثيوبية، لكنه البحر مجدداً، ابتلع الظلم ومعه خوف المغلوبين.

كان سعيد مثلي يحدّق في البحر بإجلال قبل أن تخرج كلماته:

«كانت لحظة قاتمة على أهالي مصوع، شعر الجميع باقتراب النهاية، خاصة حين تزامن القصف جواً وبحراً، بدت مصوع كفريسة عديمة الحيلة بين فكي وحش جائع، تضاءلت لدى الناس الرغبة في الفرار، أيقنوا أنهم أمام لحظتهم الأخيرة، بدأت كل عائلة تجتمع في مكان واحد، يقترب أفرادها من بعضهم حد الالتصاق، وحده القرب ممن نحب قد يجعل الموت أخف وطأة، ينزع عن الخائفين خوفهم قبيل لقاء مصيرهم..

كان كل شيء مواتياً كي يضع الثوار أسلحتهم، لتطول استراحتهم، لم يكن ليلومهم أحد، لم تكن هذه النهاية لتخدش نضالهم الطويل، فقد تعوَّد الناس على أكثر النهايات مأساوية لأكثر الأحلام جمالاً، كانوا سيحصلون على شيء من تعاطف العالم، وقد تذكرهم بعض كتب التاريخ كجماعة أرادت لكنّ إرادة الأقوى في النهاية كانت أمضى وأكثر نفاذاً..

على النقيض من ذلك، انتصرت الثورة، وضع العدو سلاحه، وابتلع البحر من بقي يتربص بها، أدرك الثوار أن النصر يلي أحلك اللحظات وأصعبها، مرّت أرواحنا باستنزاف طويل، كانت كل لحظة منه كفيلة بأن تكتبَ نهاية لثورتنا تلك، لكن وميضاً في البعيد كان يبقينا دائماً على اتصال مع الأمل..

قد يخطر ببالك أن تسألني ما إذا كنتُ قد حدثت نفسي بالاستسلام حينها، نعم فعلت. لكني سرعان ما طردت الفكرة بمجرد أن رأيت ثائراً إلى جواري فضّل الموت ممسكاً بسلاحه على الحياة دونه، فعلتُ الشيء نفسه، وقد يكون ثائر آخر طرد فكرة الاستسلام حين رآني، وهكذا. كانت الثورة بمبادئها وقيمها كالعدوى تماماً، لا تلبث أن تتملك شخصاً حتى تنتقل إلى الآخر..

بقدر ما كان الإثيوبيون يتكئون على قوتهم وقوة الشيوعية من خلفهم، بقدر ما كنا نستند إلى ضعفنا، حين تكون ضعيفاً تقلّ حساباتك، تتلاشى الخيارات أمامك، لا تعود مترفاً بالهواجس أو الأفكار المتناقضة، حينها إما أن تموت أو تموت، لذا ستكون أكثر حرصاً من عدوك أن تجد ميتة تليق بك، ميتة تبقيك حياً رغماً عنه..

كثير ممن فقدناهم قاموا بأمور خارقة قبيل استشهادهم، بعضهم قَتل أعداداً كبيرة قبل أن يُقتل، آخرون قدموا أجسادهم فداء كي يُعيد البقية تموضعهم، حتى الموت لم نكن نريد له أن يمر هكذا، دون تكريم أو احتفاء، وحدها هذه الطريقة كانت تعطيه حقه، لهذا أنا أؤمن تماماً أن الباحثين عن الموت هم أكثر الناس بقاء».

لنارٍ تغادر بركانها انتمي

والمياهُ التي تحتمي.. من مصباتها بالطمي

ثم من غيهبٍ

قطرة

قطرة

ترتمي!

م. الشيخ

بدأتْ فكرة السفر إلى إرتريا تستحوذ عليّ، خاصة بعدما استطعت تهدئة مخاوف أمي قليلاً من إمكانية تعرضي لأذى على خلفية انتماء والدي السياسي.

كانت أمي تعيش وسط غابة من الأقاويل لا يُعرف صحتها من عدمه، كانت الجارات يخبرنها كيف أن الشعبية انتقمت من فلان لأن والده قاتلها قبل الاستقلال حين كان عضواً في جبهة التحرير، وكيف أن آخر اعتقل في المطار لمجرد وجود تشابه بين اسمه ومعارض يعيش في أوروبا.

فرغت من تبديد تلك المخاوف من رأس والدتي عبر تذكيرها بنماذج أخرى سافرت وعادت دون سوء رغم تاريخ عائلتها الطويل في الانتماء لفصائل مناوئة للشعبية.

بدأت أتفرغ لمتابعة الفضائية الإرترية، كنت في حالة جوع كي

أرى إرتريا، ناسها ودوابّها، أشجارها وحجارها، كنت بحاجة لأؤسس لذاكرة بصرية تسند كمَّ الحكايات التي تدور في رأسي.

«هذا القطار بناه الطليان. كان يقطع الطريق بين مصوع وأسمرا، يخترق الجبال لينقل الناس والبضائع، وحين قامت الثورة استخدم في نقل العتاد الحربي للثوار، لهذا تم استهدافه ولم يتبق منه اليوم سوى هذه العربات التي تقطع مسافة ضئيلة من أسمرا وحتى نفاسيت إحدى القرى المتاخمة لها»..

بينما كانت أمي تعلق على الصورة، كانت أغنية «ود شيخ» الشهيرة ترافق حركة القطار البخاري:

«بابوراي.. بابوراي

بابوراي أسيررا.. فِنغا باصع وأسمرا»

يمضي «ود شيخ» في تتبع سير القطار الواصل بين باصع وأسمرا، يحمّله سلامه وأشواقه لكل مدينة يمر بها:

«فنغا كرن وأسمرا»

«فنغا قندع وأسمرا»

على أنغام بابوراي تتراقص فتيات رشيقات بملابسهن التقليدية الملونة، لم يكن يوازي جمال الأغنية إلا هذا النوع من الرقص، فهو في مرتبة متوسطة بين حركة متخشبة لا تلائم هذا اللحن المنساب، وبين ابتذال قد يفرغ الأغنية الوطنية من وقارها. وجاءت أمي لتؤكد هذا الإحساس:

«هذه رقصة شَليل الخاصة بالنساء، والشليل هو الشعر الطويل الناعم، لذا فالرقصة تعتمد على إبراز الفتاة لجمالها بتحريك شعرها يميناً ويساراً، لأن الشعر لدى قبائل الشرق عنوان الجمال، لكن المرأة

لدينا لا تقوم بأكثر من هذا، فحتى حين ترقص لا ينبغي أن يفارقها الحياء، وإلا انقلب حسنها إلى قبح. أما الرجال فرقصتهم تسمى «وَسوميا» وتكون أكثر حركة وعنفواناً، ويُستخدم فيها السيف لإظهار الفروسية والقوة، وعادةً ما تكتمل الأفراح بالرقصتين معاً ليقدم كل جانب أجمل ما فيه»

«تلهيانا شليلت لديما ديبا نتماسي..

وسوميا وقدا.. وكسكس مسل مرقدي»..

لا تعبأ جدتي بضحكاتنا وتواصل الغناء بنشوة طاغية، فما شرحته أمي بالكلمات تعيده جدتي شعراً وغناء:

«ديما ينبر مسلنا.. عادات بنا يتبدي

عادات بنا من بدير ديما يبلي»..

تحفظ جدتي معظم أغاني إدريس محمد علي، فهذا «الولد» كما تسميه هو أفضل من أدى وحافظ على أغاني التغري، وخصوصاً أغاني «ود أمير» أشهر شعراء التغري على الإطلاق. لكنها لم تكن تهنأ كثيراً بترديد تلك الأغنيات إذ سرعان ما تقاطعها أمي بالاستغفار حيناً، وبالتخويف حيناً آخر من أن يمتلئ البيت بالشياطين، فكانت تلجأ في الغالب إلى ترديد الكلمات شعراً دون دندنة:

«بعلا قرين لالي برابره شاماتكي قروبي تحابره

أسئليني شلملم.. فاتي ميتو سرايو؟

فاتي سراي ألا بو.. ميتو اتمر مكرايو»

هذه الأغنية ذات الرومانسية الباذخة كانت مدخلي إلى عالم إدريس محمد علي، «فشاماتكي» أو «حُبكِ» إحدى روائع الغزل

التغري، فيها يصف المتيم معشوقته التي ترتدي «القرين»، وهو طوق ذهبي يوضع على الجباه..

يسأل المولع فتاته عن دواء للعاشق، لكنه وقبل أن تأتيه الإجابة يردّ ألاّ دواء للعاشق، وكأنه يخشى بالفعل أن يجد إجابة تشفي علته..

«اللي عنتات شلملم بعلكم كبر نسأيا

كفو شنن ايتودي وربي قرمت هبيا؟

عنتات قرم وكبوب.. ومن لعل شقر دفنيا»

هنا يتوغل العاشق في داءه، يعدد صفات محبوبته التي أخذها الكِبر وبدأت في السير متبخترة، وهو لا يجد عيباً في أن تكون متكبرة، ما دامت حظيت بكل هذا الجمال من عيون واسعة وشعر يغطيها بالكامل.

كانت فقرة التغري قد انتهت سريعاً، وعاد التلفزيون لبثه بالتغرنية.

تتواصل الأغاني، معظمها حديث ومصوّر بطريقة الفيديو كليب، على عكس أغاني التغري التي يبدو وكأنها توقفت عند مرحلة زمنية سحيقة، جهلي بالتغرنية يجعلني أكتفي بالفرجة على أماكن التصوير، تمر شوارع أسمرا كومضات سريعة وفق ما يتطلبه إيقاع الأغنية، تبدي جدتي ضيقاً من عدم قدرتها على اصطياد لقطة مكتملة، بينما تحاول أمي قدر استطاعتها أن تلحق بالصور:

«هذه كنيسة إندا ماريام، للمسيحيين الأرثوذكس، أمامها بالضبط تقع محطة الحافلات، هناك كانت عائلة زوديتو تسكن، وبالسير خطوات قليلة ستجد جامع الخلفاء الراشدين».

كانت زوديتو حاضرة في كل أحاديث أمي عن إرتريا، ما إن تتحدث عن مصوع حتى تجيء زوديتو الجارة الوفية القريبة منها، وسيل

ذكريات الطفولة، وحين ينتقل الحديث إلى أسمرا تجيء زوديتو أيضاً، مع قصص الصيف في كمشتاتو.

كانت هذه المرأة بمثابة الهاجس الذي يسكن أمي، ربما كانت هذه هي طريقتها الوحيدة للاحتفاظ بأمل لقائها يوماً ما.

«قبل وصولك إلى كمشتاتو ستجد بين الكنيسة والجامع سوق السمك، لا أعرف إذا كان موجوداً الآن، إلى جواره يقع بيتنا الصيفي، وهو بيت كان والدك يستأجره طوال أشهر الصيف ليجنبني حرارة مصوع العالية»

بدت أمي كمن يضع أمامي خارطة أسمرا، كان هذا يشبه وصايا ما قبل السفر، أما أنا فقد اعتبرت الأمر بمثابة موافقة نهائية على سفري إلى إرتريا.

تتواصل فقرات التغرنية، تمر نشرة الأخبار برتابة مملة، يليها لقاء مع مفتي الديار الإرترية، كان غريباً بعض الشيء أن يطل المفتي عبر فقرة التغرنية، لكن الأكثر غرابة كان شكل اللقاء في حد ذاته، فقد كان المذيع يسأل بالتغرنية، ليجيب المفتي بالعربية وترافقه ترجمة فورية للتغرنية، كان الأمر أشبه بعبث يصيب المشاهد بالدوار، فقد كان يكفي أن تكون الأسئلة بالعربية، أو يجيب المفتي بالتغرنية فتكتمل الصورة دون هذه المراوحة العرجاء بين اللغتين.

حكيت لمحمود ما رأيت، فكنت كمن يحرضه على «شرشحة» الفضائية الإرترية..

«هذا هيّن، سيبك من اللغة المضروبة بجزمة قديمة، يا راجل لمّا تكون مناسبة في جذة بيرسلوا مذيع تغرنية يغطيها، رغم أن الموضوع كله بالعربي وفي بلد عربي، يعني تخيل يعمل حوار معايا أجاوب

بالعربي يقوم يترجم جوابي للمشاهدين، وكأني من جنسية ثانية، وبعدين يرجعوا يقولوا الثوابت واللحمة الوطنية».

«تظن أن الموضوع مقصود؟ يعني مش مجرد ارتباك بسبب اللغتين؟».

«أنا رأيي أنه مقصود، ما أعتقد يكون عفوي، لأنه بيتكرر في مختلف البرامج والتغطيات، والتكرار دائماً في اتجاه واحد»

لم يكن هذا فقط مأخذ محمود على المحطة، فقد كان يرى أن الأغاني مهمة وخاصة حين تكون تراثية أو تتحدث عن التاريخ وسنوات النضال، لكنه كان يرفض أن يتحول التلفزيون لمحطة غنائية لا تقطع أغانيها إلا لدقائق معدودة قبل أن تعود إليها:

«لو كنت بتحكي لواحد مو إرتري عن بلدك ونضاله، ورجع شاف المحطة تتوقع يلاقي رابط بين كلامك عن النضال وبين الطرب ليل نهار؟»

بينما كان محمود يفرغ غضبه، تذكرت بداية هذه القناة حين كسرتْ كل الأعراف والقوانين المتعلقة بحقوق البث وقامت بنقل مباريات كأس العالم التي تملك حق بثها الحصري في الشرق الأوسط محطة سعودية، وقتها تهافت الناس على تردد القناة، أصبحت قناتنا بشهرة «الجزيرة»، لم ينته الأمر بعد ذلك إلا حين أقدمت المحطة السعودية على «تفاهم ما» مع التلفزيون الإرتري، تم على إثره نشر إعلان في كافة الصحف السعودية أن إرتريا لن تقوم بنقل مباريات كأس العالم، وقد كان بالفعل.

«مع هذا تظل القناة متنفساً للمغتربين حول العالم، حتى المعارضة لا تفوّت مشاهدتها»

كنت واثقاً أن محمود لن يجادل في هذه الفكرة، فانتشار القناة وحجم المشاهدة التي تحظى بها لا ينكرها منصف، لكنه التف على فكرتي بفكرة مضادة، سرعان ما التهمتها:

«طبيعي مادام ما في بديل تظل هذه القناة هي الوجهة الوحيدة للإرتريين»..

يا أرض ابلعي تعب العراةْ

هذا كتاب الرمل.. والشيطان مصلوبٌ

على باب البناتْ.

وعلى مسافات الردى بدوٌ وحاناتٌ

م. الثبيتي

كان مقرراً أن نغادر فجراً إلى دهلك، لكن سعيد اقترح أن نمر على قُرْقُسم قبل ذلك وهو اقتراح أيدته سمراويت بقوة.

فوجئت بالعدد الكبير لمرتادي الشاطئ، وكان بادياً أن معظمهم قادمون من العاصمة. على امتداد الرمال الذهبية انتشرت أكواخ خشبية ومظلات شمسية، بينما كانت الأجساد العارية إلا من قطعة صغيرة أو اثنتين تحكي تاريخاً من الجمال الأسمر، تنظر إليّ سمراويت وأنا أحدّق في العابرات بتفانٍ:

«على مهلك.. أخشى أن تصاب بالتخمة»

لم أكن بحاجة لأذكّرها بالمقولة الشهيرة التي فضّل صاحبها الموت متخماً على أن يموت جائعاً، لم أكن أملك الوقت أصلاً لأضيعه في قول الشعر، كان كل شيء غير التهام هذا الجمال هو نوع من الحماقة.

أحسّت سمراويت بفداحة حماسها للمجيء إلى قرقسم، وحده هذا المكان كان يقبل القسمة على عشرة وعشرين بل ومائة سمراء فاتنة.

«كيف لهذا الشاطئ الصغير أن يضم هذا الكم الهادر من الحسناوات؟ ألا يخشى الغرق؟». .

ابتلعت سمراويت غيظها وتجاهلت سؤالي تماماً، جاءتني الإجابة من سعيد وهو يضحك:

«منذ القدم وقرقسم متخم بالحسناوات ولم يغرق، احذر أن تغرق أنت»

أزاح جواب سعيد شيئاً من غيظ سمراويت التي ضحكت بصوت عال وكأنها تريد تصدير ما تبقى من غيظها إليّ، حين فشلت محاولتها اختارت كوخاً بعيداً بعض الشيء كي نجلس فيه.

بدا الشاطئ وكأنه بقعة جغرافية دخيلة على مصوع، فوجه المدينة المتعب لم يكن ليستوعب هذا القدر من الألوان الصارخة في قرقسم. لم تكن الطرقات المنهكة لتتحمل صخب هذه الأجساد الناعمة، كانت المدينة وشاطئها كمن يسيران متضادين في خطين متوازيين. نقلت تأملاتي لسعيد. .

«يا عمر قرقسم ليس جديداً، فأهالي مصوع يعرفون هذا الشاطئ منذ القدم، لكنه مؤخراً حظي ببعض الاهتمام فأصبح وجهة سياحية لزوار إرتريا من أبنائها المغتربين»

«هذا يعني أنك لو جئت ثانية لن تجد ما أعجبك فيه لأنهم سيكونون قد عادوا إلى حيث يعيشون». .

من جديد كانت سمراويت مصرة على إغضابي، لكن بالقدر نفسه من إصراري على عدم تمكينها من ذلك:

«إلا إذا جئتُ في الصيف أنا أيضاً».

مع الضحى انطلقنا إلى دهلك.

كانت الشمس فوق رؤوسنا تماماً، لم تكن المظلة البالية في المركب تقينا شيئاً من حرّها، شعرت برأسي يتبخر، حين قلت ذلك، كانت نبرة الشماتة جاهزة:

«على الأقل سينظف دماغك من قرقسم»

كانت سمراويت على حق، فبمقدور هذه الشمس أن تمحوَ ذاكرة كاملة وليس لحظات جميلة وحسب كتلك التي مرت في الشاطئ، أخيراً شعرتْ سمراويت بالنصر حين سمعتني ألعن قرقسم، فلولاه لكنا قطعنا المسافة إلى دهلك، قبل أن تستيقظ الشمس وتلحظ وجودنا.

مرت ساعات قبل أن يشير دليلنا إلى جزيرة بعيدة:

«هذه دهلك، أكبر جزر الأرخبيل، هنا سنجد أناساً، وسنرى المخطوطات الأثرية، لكننا قبل ذلك سنمر بسجن نُخره.. لابد أنكم تعرفونه»..

لم أكن قد سمعت بهذا السجن من قبل، لكني أجيء إلى دهلك ومعي كل الأقاويل التي تحيط بهذه الجزيرة، فالمعارضة تقول إن بها سجوناً لقمع معتقلي الرأي، بينما العرب يتهمون الحكومة تارة بتمكين إسرائيل من بناء قواعد عسكرية تطل على باب المندب والجزيرة العربية، وتارة بتمكين إيران من الأمر ذاته. فكرت في استدراج الدليل نحو هذه الأقاويل:

«هل هو سجن للمعارضين؟»

ارتبك الرجل ونظر إلى سعيد كمن يبحث عن مخرج من حقل الألغام الذي أوقعته فيه، لكن ضحكة سعيد أعادت إليه بعض الهدوء:

«هل تصدق مثل هذا الكلام؟ لا وجود لمعارضين في دهلك،

نخره هو بقايا سجن تاريخي، كان الإيطاليون يعذبون فيه رجال المقاومة الإرترية، وجاء الإثيوبيون من بعدهم ليمارسوا الشيء نفسه»

كانت سمراويت تنتظر أن يكمل سعيد كلامه، لتنقض عليه:

«وما أدراك أن دهلك خالية من المعارضين؟»، هل فتشت الجزيرة شبراً شبراً، ثم إنها ليست جزيرة واحدة بل أرخبيلاً مترامياً، هيا أخبرني»

«ببساطة لأن الحكومة لن تخجل من قول ذلك لو كان صحيحاً، فكلنا نعرف أن قياديين سابقين في الحكومة هم الآن في السجن، والحكومة لا تنفي ذلك، إذاً لماذا النفي في حالة دهلك؟».

بلغنا نُخره، كانت أشبه بجزيرة داخل الجزيرة الأم، معزولة بعض الشيء، ودرجة الحرارة فيها تفوق مصوع بكثير، هذا ربما ما جعل منها مكاناً ملائماً لبناء السجن. على الشاطئ كانت تتناثر آليات إثيوبية محترقة، وآلاف الرصاصات الصدئة، كان المكان يوحي أن المعركة انتهت البارحة وليس قبل عشرين عاماً..

في الوسط تقريباً كان يقع السجن، بناء مستطيل من طابق واحد بثلاثة أضلاع، تتراص فيه زنازين صغيرة بأبواب حديدية ونافذة صغيرة مربعة.

«انظروا كم هي ضيقة، ورغم هذا كانت الواحدة منها تستوعب أكثر من سجين، ومع الحرارة العالية تصبح الزنزانة فرناً يحترق فيه المقاومون، لكن لا أعرف إن كان هذا سيفاجئكم، هذه الزنازين مخصصة لمن كان يصفهم العدو بغير الخطرين، أما من يعتبرهم خطراً عليه، وهم قيادات المقاومة فسجونهم مختلفة»

سار بنا الدليل قليلاً، وأنا أفكر في نوع السجن الذي سيكون أكثر قسوة ليلائم الخطرين.

لم يدم تفكيري كثيراً، فقد وقفنا أمام أحدها، كان سجناً تحت الأرض، مدخله حفرة محاطة بالصخور، في وسطها باب حديد، هالنا المنظر، فإذا كان الوقوف تحت هذه الشمس الحارقة لدقائق هو الهلاك بعينه، فما بالنا بالدفن تحت الأرض لفترات طويلة. فتحت الباب، دَرَج يقود إلى ممر يضيق كلما نزلت أكثر، لم أستطع أن أكمل شعرت بالاختناق، اختنقت أكثر حين واصل الدليل شرحه:

«كان السجناء مكبلين يقادون للأسفل، في نهاية الممر الضيق حفرة بالكاد تسع شخصين أو ثلاثة على أكثر تقدير، لكن العدو كان يحشر فيها عدداً أكبر، يتمدد السجناء متلاصقين، بحيث يكون كل شخص مقابلاً للآخر، يعود السجان ليضيف شخصاً آخر، وهكذا تكاد الضلوع تخرج من مكانها، وتكاد تتلاشى آخر نسمة هواء. كانت جلودهم تتقرح فتنتقل العدوى بينهم، ومن يمت لا يتم إخراجه من الحفرة إلا بعد عدة أيام، إمعاناً في إيذاء رفاقه»..

طلبت سمراويت من الدليل أن يتوقف لشعورها بالغثيان، قدمتُ لها الماء، غسلت وجهها، لكن الرجل طلب منها أن لا تفعل وأخبرها أن الهواء في دهلك يضر الوجه إذا اختلط بالماء، مجدداً أفكر بمدى قسوة الحياة تحت الأرض إذا كانت بهذه القسوة فوقها، وهو ما أكده الدليل أيضاً:

«يقال إن كلمة دهلك في الأصل هي دار الهلاك قبل أن يتم تحريف الاسم، أميل إلى هذا الاعتقاد، وأظنكم الآن توافقونني الرأي»..

عدنا إلى المركب من جديد بغية الذهاب إلى المناطق الأثرية وتلك المأهولة.

لم تفارق نُخره مخيلتي طوال الطريق، شعرت بها همّاً ثقيلاً يجول بين ضلوعي، لا أقوى على تخيل ما كان يحدث فكيف بتعرضي له، لا أعرف كيف لشعب أن يكافئ أبطاله الذين عانوا هذا النوع من القمع؟.

«لم يكن ليعرف أحد شيئاً عن نُخره لولا فرار أحد المقاومين وإبلاغ الثوار. اقتحام السجن وتحرير من فيه كان جانباً من انهيار الاحتلال وتصدعه في البلاد كلها»

من جديد يسير الدليل مع أفكاري، كيف نكافئ ذلك المقاوم الذي خلّص رفاقه بفراره؟ هذه المرة فكرت بصوت عال، بلغت الهواجس حداً لم أستطع كتمانها.

«ومن قال لك إنه كان ينتظر مكافأةً غير التي تحققت.. باستثناء إرتريا لم يكن أي ثائر يبحث عن شيء، وحده الوطن كان ثمرة كل المعاناة، وسيظل. ربما نبخس الثائر حقه، ونهمّش جهده إذا ما سألنا عن المقابل الذي يستحقه، إذا كان للمقاومة مقابل كأي شيء آخر، فستفقد قدسيتها، وتنتزع عنها هالة النور التي ترشد أبناءها في طريقهم الطويل»..

وصلنا إلى منطقة الآثار، مساحة كبيرة، تعج بالقبور والبيوت الأثرية، تتناثر النقوش والعلامات الدالة على فترات زمنية معينة، كنا كمن وقع على هذا الكنز لأول مرة، فكل هذه الآثار متروكة على حالها في العراء، سألت الدليل إذا ما كانت المنطقة تعاني إهمالاً مقارنة بأهميتها فتهرب من جوابي، واختار عوض ذلك جواباً آخر:

«هنا قبور السلاطين الذي تعاقبوا على حكم هذه الجزيرة. ربما تعلمون أن هذه الجزيرة شكلت منفى وسجناً منذ أيام الدولة الأموية، كان الخلفاء ينفون معارضيهم إلى هذه البقعة النائية شديدة الحرارة، لكن المنفيين ومع الوقت استطاعوا التأقلم مع دهلك فنشأت حضارات ازدهرت فيها العلوم. وكان أن خضعت الجزيرة في فترات معينة لحكم سلاطين قادمين من اليمن، وما نراه هنا هو ما تبقى منهم»..

اقتربت من إحدى الشواهد الصخرية وبالكاد تمكنت من قراءة بعض أحرفه التي نجت من الطمس:

«﴿يا أيتها النفس المطمئنة.. ارجعي إلى ربك راضية مرضية.. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾.. قبر الشريفة السعيدة الطاهرة النقية غازية بنت سلطان...».

لاحظ بعض الأهالي وجودنا فاقتربوا منا، عرفت أنهم من اليمن، وأنهم مقيمون في دهلك بصورة دائمة، يعيشون على صيد السمك واستبداله في مصوع ببقية المؤن..

«هنا في هذه المنطقة ما يقارب 365 بئراً، بعدد أيام السنة، كنا نشرب كل يوم من بئر مختلف، لكن بعضها اليوم قد نضب، لذا فقد خصصنا بئراً لأيام المناسبات كالأفراح والمآتم، وآخر للضيوف القادمين أمثالكم، ونعيش على ما تبقى منها»..

تحمست سمراويت لحديث الرجل فطلبت أن نشرب من بئر الضيوف، لكنها عادت لتعدل عن الفكرة حين رأت غطاء البئر وقد غمرته الأتربة، أحس اليمني بحرجها:

«أنا آسف منذ فترة طويلة لم يزرنا أحد».

كلّ المسافات نصف اتجاه!

م. الشيخ

«على الأقل هناك راح تحكم بنفسك على الوضع». .

كان محمود محقاً.

لن أخرج من دوامة الآراء التي تحيط بي من كل جانب إلا بتكوين رأيي الشخصي حول ما يحدث في إرتريا، أسعدني حماس محمود للفكرة، كان واثقاً أنني سأخرج بانطباع جيد، وسأطرد من رأسي أفكار أحمد المتطرفة.

الغريب أن أحمد أيضاً كان يملك الثقة ذاتها في ما يخص أفكاره. .

«لن أسافر بهدف إثبات صحة رأي أحدكما، لو فعلت سأعيش المأزق نفسه. سأذهب متجرداً منكما، سأملأ رأسي وقلبي بأفكاري وانطباعاتي الخاصة، ربما أكون حينها قريباً من أحدكما، لكني حتماً لن أكون متطابقا معه»

بدأت أنقب عن الكتب التي تحكي تاريخ إرتريا، لم يكن سهلاً الوصول إليها، فمكتبة القنصلية ضحلة، وعناوينها منحازة لوجهة نظر واحدة.

«ستجد أننا نملك أكثر من تاريخ، كل من أخرج كتاباً، زاد فيه من جرعة الأنا والطائفة والقبيلة، قلة حاولت التجرد من ذلك في مؤلفاتها، وعلى رأسهم ناود، والزعيم التاريخي عثمان صالح سبّي». .

في ما بعد أدركت أن ملاحظة أحمد في محلها، فمعظم الكتب التي وقعت في يدي كانت متخمة بالعنصرية والتلفيق والتناقض.

بدأتُ أشعر أن التأليف في مرحلة ما كان شكلاً من أشكال تصفية الحسابات السياسية أو امتداداً لها، لذا وإضافة لناود، كان سبّي خياري المفضل وخاصة كتابه الأهم «تأريخ إرتريا»، إضافة إلى كتب «جغرافية إرتريا»، «الصراع في حوض البحر الأحمر عبر التاريخ»، «جذور الخلافات الإرترية وطرق معالجتها».

لم يكن إنصاف سبّي وحده دافعي لقراءة مؤلفاته، فمكانته ودوره في الثورة الإرترية جعلا منه مصدراً رئيسياً لاستقاء التاريخ الإرتري، فعثمان صالح سبي أحد مؤسسي جبهة التحرير الإرترية، ومسؤولها للعلاقات الخارجية، كان واجهة النضال الإرتري منذ البداية أوائل الستينيات وحتى وفاته في منتصف الثمانينيات.

يصر محمود أن سبّي مات مقتولاً.

الرجل أجرى عملية بسيطة في الجيوب الأنفية في القاهرة، لكنه خرج منها جثة هامدة، وما يدعم الفكرة لدى محمود أن الرجل في آخر حياته كان مستهدفاً من قبل خصومه السياسيين، إضافة إلى أن تلك الفترة شهدت تصفيات جسدية متعددة في عدة دول وخصوصاً في السودان.

«مهما يكن حجم الخلاف مع سبَي، لم يكن ينبغي نسيان تاريخ هذا الرجل، فهو أول من هرّب الطلاب إلى مصر لإكمال تعليمهم بعيداً عن عيون الإثيوبيين..

وهو أول من جلب سلاحاً للثوار السبعة الأوائل بقيادة المناضل حامد إدريس عواتي..

وهو من طاف العالم شرقاً وغرباً للتعريف بالقضية الإرترية وتوفير الدعم السياسي والمالي لها، وتمكن قبيل وفاته أن يجلب اعتراف الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي بالثورة الإرترية، نصف هذه الأمور تجعل منه أيقونة ورمزاً للإرتريين جميعاً وليس خصماً مطارداً». .

هل تعرف أنه استطاع أن يحوّل مسيرة جبهة التحرير الإرترية من العمل العسكري فقط إلى آفاق ثورة شاملة ثم إلى ما يشبه حكومة بكل أركانها؟، فجبهة التحرير كانت تمتلك جيشاً حديثاً لديه من الأسلحة ما لم يتوفر لبعض الدول واستطاعت السيطرة على الريف الإرتري بل وفي مراحل معينة على أغلب المدن...

إضافة إلى ذلك أنشأ سبّي أجهزة تعنى بكل متطلبات الحياة من تعليم وصحة وشؤون اجتماعية ورعاية أسر المقاتلين وأجهزة قضاء وأمن، بل وتمكن من توفير تسهيلات فرص العمل والإقامة للإرتريين في الخارج لاسيما في الدول العربية، كل ذلك والوطن لمّا ينل استقلاله. .

كان محمود يتحدث بحرقة سرعان ما انتقلت إليَّ خاصة بعدما تعمّقت في أفكاره اللافتة التي تتردد بقوة في كتبه:

«أنا ديمقراطي وليبرالي أؤمن بضرورة تعدد الآراء والأحزاب لصالح التطور الطبيعي للمجتمع، خصومي هم خصوم هذه الأفكار الذين يؤمنون بالقمع والدكتاتورية».

كان يشترك مع ناود في الشعور العروبي الطاغي، ولا يخلو مؤلف له من التذكير بعمق العروبة ودورها في إرتريا:

«عروبتنا في إرتريا هي مصيبتنا، ولكننا قابلون بها ولا نرضى

عنها بديلاً. نعتقد أن مسألة العروبة في إرتريا هي الأساس لأنه لولاها لما كانت حاجة للثورة أصلاً»

لكن سبّي يذهب أبعد من ناود في ما يتعلق بالعروبة ومحدداتها السياسية والاستراتيجية، وكان لا يجد حرجاً في التصريح بذلك:

«إن إرتريا المستقلة في ذلك الموقع الاستراتيجي الهام، وهي مع العرب اليوم وغداً وإلى الأبد، سوف يكون لها دورها في الشد على عنق العدو الصهيوني والمساهمة في خنقه»

نضال سبّي السياسي كان أحد تفرعات وعيه الثقافي والديني، وهو ما ميز معظم الذين تخرجوا في مدرسة الباشا صالح كيكيا في حرقيقو بمصوع:

«إن الثقافة العربية والإسلامية في إرتريا والقرن الأفريقي هي ثقافة مؤسسة منذ أكثر من ألف عام في هذه المنطقة وليست جديدة بل عميقة الجذور»..

لهذا ربما كان يدرك صعوبة تسويق قضيته في عالم تسوده ثقافة مختلفة:

«إن الدول الكبرى لا تريدنا لأن الصراع يدور حول مسألة العروبة وخاصة عروبة البحر الأحمر، في إحدى زياراتنا إلى روما سألونا الطليان مرة: ماذا يعطيكم اليسار العربي؟ قلنا الفتات قالوا ماذا يعطيكم اليمين العربي قلنا ليس أكثر من اليسار فقالوا لماذا تصرون على التعامل مع العرب؟ لماذا لا تتفاهمون مع إسرائيل؟ قلنا لهم نفضل التعامل مع العرب لأننا عرب، فلا حاجز بيننا وبين الأثيوبيين سوى الثقافة.. إننا ننتمي إلى حضارة مختلفة وقد حارب الأحباش التعريب ألف سنة».

«هل تعرف أن معظم الأعوام الثلاثين التي نتغنى بها في نضالنا كانت في الأساس حرباً أهلية؟». .

كان توصيف محمود صادماً، سبق لي أن قرأت عن تشظي جبهة التحرير إلى فصائل متناحرة، لكن ذلك برأيي لم يكن كافياً لوصف ما جرى بالحرب الأهلية. تركت لمحمود أن يشرح أكثر:

«لعلك قرأت عن الخلاف الذي تحول إلى عداء وحرب طاحنة بين حركة التحرير الإرترية بقيادة ناود وجبهة التحرير التي ينتمي إليها سبّي، في الحقيقة لم يكن الرجلان هما سبب الخلاف بقدر ما كانت أطراف أخرى في الجانبين، فكما تعلم أن «الحركة» نشأت أولاً وكانت تؤمن بالعمل السياسي، لكن المؤمنين أكثر بالعمل المسلح أسسوا بعدها بعامين جبهة التحرير، تيمناً بجبهة التحرير الجزائرية، كان يمكن للطرفين أن يعملا معاً، لكن أطرافاً داخلية ركزت على نقاط الخلاف وأجّجتها حتى اندلعت الحرب بينهما. .

الغريب أنه حين تم الانقلاب على سبّي وتهميشه من قبل القيادة العامة في جبهة التحرير، اضطر للانشقاق وأسس «قوات التحرير الشعبية»، والتي انضم لها ناود في ما بعد، وهذا ما يؤكد أن ناود وسبّي لم يكونا يوماً سبباً في الخلاف بين الحركتين. .

تناسلت بعد ذلك الفصائل الإرترية المتناحرة. . كان بالإمكان تحقيق الاستقلال في السبعينيات حين كان الثوار يسيطرون على 95% من البلاد لولا هذه الحروب الأهلية، أي إن الاستقلال قد تأخر فعلياً عشرين عاماً»

ناشدتُ قلبي أن يستريح

هل يعود الصبا مشرعاً للغناء المعطّر

أو للبكاء الفصيح.؟

م. الثبيتي

العودة إلى أسمرا تشبه الاستيقاظ على خبر جميل.

لم أكن أعرف أني مشتاق إليها إلى هذا الحد، كالمرة الأولى استقبلتني المدينة بالأمطار، كانت كمن يبادلني الشوق بالشوق. وجدت ابتسامة سلام على مدخل مودرنا..

«اشتقتُ إليكِ يا قمر»..

تغمز بلؤم وهي تقدم لي الكابتشينو:

«لم أعد كذلك منذ عرفت الفرنسية الفاتنة، بالمناسبة أين هي؟»

كدت أخبرها أني أعد الثواني في انتظار أن تأتي والحلم بيديها، فمنذ غادرتْ غرفتي إلى منزلها هذا الصباح، وأنا أعيش حالة انتظار لا تنتهي. ومع هذا لم أكن قلقاً، فوجه سمراويت قبل أن تغادر مدّني بما أحتاجه من الطمأنينة:

«أمي تحبني، ولن تقف في طريق سعادتي، لا تقلق»..

كان كل شيء مثالياً اليوم، الطقس، وجوه الناس، أسمرا المزدحمة بالسواح كما هي عادتها في أغسطس من كل عام.

لم يكن ينقصني إلا وجه سمراويت، ليمتلئ داخلي بكل ما هو

جميل. فكرت بالاتصال بها، باستعجالها، لكني عدلت عن هذه الحماقة، فلو كانت انتهت من لقاء والدتها لجاءتني تسابق روحها. إذاً ماذا أفعل؟

من المحرج الاتصال بسعيد وقد أخبرته أني سأكون مشغولاً اليوم ولن أستطيع لقائه. لم يكن يومي ليسير بأي اتجاه آخر سوى ما ستأتي به سمراويت.

يا الله ما أصعب أن نحشر أنفسنا داخل أمنية وحيدة، فلا يعود شيء يمدنا بالحياة إلا حبل قصير ينتهي عندها.

اخترت أن أعطي ظهري للمارة وكأنني في حضرة سمراويت، هكذا فقط أبدد وحدتي دونها.

للمرة الألف أنظر في هاتفي، أتأكد أنه ليس مطفأً أو في وضعية الصامت، أقلّب رسائلها الصباحية والمسائية، أعيد قراءة رسائلها وهي بين أحضاني، وتلك التي تصلني وأنا نائم. لم يعد هاتفي يحوي رسائل من آخرين، وحدها رسائل سمراويت ملأت ذاكرة الجهاز..

«معكَ فقط صرتُ أحب الليل.. لم يعد موحشاً كئيباً كما كان.. لم أعش من قبل ليلة أسطورية كهذه»

أذكر أني رددت على تلك الرسالة في حينها، قلت كلاماً كثيراً، قلت إني صرت أحب عمري كله، بليله ونهاره، منذ أصبحتِ أنت جزءاً أصيلاً منه، وإن دخولك في حياتي لم يجعل ليلي أسطورياً فحسب، بل صبغ كل لحظاتي بكرنفال من البهجة أضاءت روحي..

«كثيراً ما يشغلني سؤال: هل تشعر بالسعادة مثلما أشعر؟ هل تمكنتُ من إسعادك كما جعلتني أحلّق في سماوات الفرح؟»

كدت أبادرك أنا بذات السؤال، يا الله، كثيرة هي أشياؤنا المتشابهة. جوابي يا سيدتي هو لا.

نعم لا، فأنا لا أشعر بسعادة مماثلة، بل أجزم أن سعادتي أكبر، وأكثر عمقاً، سعادة يضيق بها داخلي فتفيض حتى تغمر من حولي.

«أبسألك.. هو أنا أستاهلك.. أستاهل اني أعشقك؟»

كانت هذه هي أجمل رسائلك على الإطلاق، فما إن أخبرتك ذات قرب أني أعشق عبادي الجوهر، حتى فاجأتني بمقطع من أجمل أغانيه، أتذكر أني أخبرتك كم أتعبتُ حنجرة ذلك الجداوي الأسمر الذي لا يكف يمدني بما أحتاجه طرباً وحزناً وإحساساً. وإن بمقدوره وحده أن يبقيني معلّقاً بين السماء والأرض في ترف وجداني خالص.

أتذكر أنك قلتِ لي إنك أحببته أيضاً. وددتُ حينها لو سألتك لماذا اخترتِ بالذات هذه الأغنية الموغلة في الحزن، لم أفعل لأنك مثلي تماماً، لا تملكين أسباباً مقنعة لتحبي شيئاً. أرسلت لك رسالة أخرى، لم يكن لائقاً أن أكمل «أستاهلك» التي تقطر فراقاً، اخترت غيرها:

«أول الناس انتِ

وكلهم

وآخر اللي عيوني

تملهم

ولو تحبيني.. هذا يكفيني

يا قمرهم»

من جديد تعود أحرفك متشحة بجمال عبادي، وكأنك في سباق معي أينا ينثر الورد أكثر:

«الليل أحبك.. مابقى في السما نور

والى ضواني الليل.. للصبح أحبك

العمر أحبك... ما بقى فيني شعور

ومتى جفاني العمر... وشلون أحبك؟»

تخرجني سلام من عزلتي اللذيذة مع رسائل سمراويت، تسألني إن كنت أريد شيئاً آخر، نعم أريد، أريد أن تأتي سمراويت وتحتضني طويلاً، ثم تنظر في عيني بشوق ممزوج برغبة عارمة لتخبرني أن أمها قد وافقت على زواجنا، وأنها تنتظرني الآن لأتقدم رسمياً لخطبة ابنتها.

أريد أن أدشّن تاريخي بهذا الحدث الاستثنائي، سأكون حينها الوحيد على وجه الأرض الذي يبدأ حياته ضاحكاً.

أريد شطب قائمة خيباتي الطويلة، واستبدالها بنصر مؤزر بحجم إحدى فتوحات التاريخ العظمى، حينها سأوقف معاركي، وأسرّح جندي، فعند تخوم سمراويت تنتهي الفتوحات العظمى.

أريد أن أفجّر «غينيس» بأرقامي القياسية، كأكثر من قال أحبك، وأكثر من سمعها، وأكثر من كتبها، وأكثر من قرأها.

أريد من سمراويت قبيلة من البنات والأبناء، جميعهم يشبهونها.

تتركني سلام بعدما لم تجن من سؤالها غير ابتسامة شاردة.

تخيلت كيف سيكون حال فتاتي مع أمها وهي تزف إليها خبر رغبتنا في الارتباط، لا بد أن سمراويت ستطلب منها أن تترك كل شيء لتتفرغ لسماعها، ستشعر الأم بالقلق في البداية، لكن سمراويت ستبدد هذا القلق بملامحها الفرحة، ستجد طريقة مبتكرة لإخبار أمها، ستطلب منها مثلاً أن تغمض عينيها، وحين تفعل، تقترب منها لتهمس في أذنها:

«لدي خبر سعيد». .

تسألها لماذا إذاً طلبت مني إغماض عيني، فتأتيها إجابة غريبة:

«أريدك أن تركزي أكثر في حجم السعادة التي ستسكن قلبك بمجرد سماعك للخبر، لا أريد لأي شيء أن يبعثر انتباهك»

تضحك الأم وتنتظر الخبر مجدداً، لكن سمراويت تريد لما تحمله أن يأخذ وقته، أن يكتمل قبل أن تطلقه في الهواء كطائرة ورقية ملونة، بقدر ما تبتعد بقدر ما يتعلق بها كل من يراها. .

«أريدك أن تتذكري هذا اليوم جيداً، فصناعة الفرح ليست عملية سهلة، وأنا صانعة الفرح لهذه العائلة»

يبدأ صبر الأم في النفاد، يختلط شيء من العصبية بما تكوم من فضول صنعته سمراويت بمراوغتها المستمرة:

«تحدثي أو اتركيني وشأني». .

«عمر طلب الزواج مني». .

توقف خيالي عند تلك النقطة، لم أستطع تجاوزها، ربما شعرتُ أن ما جرى بعد ذلك هو أكبر من أن يأخذ شكلاً دائرياً صغيراً ويسبح مع بقية الأفكار في رأسي، أو ربما كان لجملة سمراويت وقعها الكبير في نفسي رغم علمي المسبق بها، فبعض الكلام لا يفقد هيبته أو حلاوته مهما تكرر على مسامعنا.

دائماً ما كان الخيال أجمل مما يحدث، هنا فقط وفي هذه الحالة ما يحدث هو أجمل بكثير مما استطاع خيالي القاصر تصويره، حين تأتي سمراويت وتخبرني بما جرى، سأعيد ترتيب أبعاد خيالي ومقاساته وفقاً لواقعي الجديد، سأطلب منها أن تحكي لي حرفاً حرفاً ماذا قالت

أمها، وكيف؟، سأرجوها أن تعيد ذلك مرات ومرات، سأغمض عيني كي أركز أكثر في حجم السعادة التي ستسكن قلبي بمجرد سماعي للخبر، لا أريد لأي شيء أن يبعثر انتباهي.

«حين تعودين أود رؤيتك ترتدين فستانك الزهري، يروق لي حينها مناداتك طفلتي»..

ليتني طلبتُ منها أن ترتدي فستانها الملائكي الأبيض، لا يوجد مثله يليق بلحظة فرح كهذه، أو ليتها ترتدي فستانها الأحمر، ذلك الذي أشعل ويشعل داخلي كلما تذكرته، أو ترتدي الأزرق، أو الأصفر، أو.. ، لا يهم، المهم أن تأتي وهي ترتدي فرح الكون كله لتُلبسني إياه قبلة دافئة تستمر العمر كله.

«عمر..»..

سرَت رعشة هزّت جسدي كله ما إن جاءني صوت سمراويت التي تقف الآن أمامي تماماً..

لنا الآن أن نستعيد
ببعض القصور جميع الخيام

م. الشيخ

«لا تنس البحث عن زوديتو» . .

لا تكف أمي عن حشر هذه الجملة بين كل جملتين من قائمتها الطويلة لوصايا السفر، فزوديتو تتوسط ضرورة الابتعاد عن الحديث في السياسة، والثقة بالغرباء، ثم تعود لتتوسط ضرورة الاعتناء بأكلي، والاتصال بها كل يوم.

هكذا يزدحم الطريق إلى المطار بالوصايا، لكنه ازدحام أخف كثيراً، مما يحمله رأسي. أومئ موافقاً مع كل وصية جديدة، بينما ينشغل ذهني بما سأواجهه بعد ساعتين.

«لا تنس البحث عن زوديتو» . .

غريب أن لا يتطلب الأمر أكثر من ساعتين، بينما قد ينقضي العمر كله قبل انقضاءها.

غريب أن يكون الوطن قريباً إلى هذا الحد، أن يكون في الجوار، أو في الشارع المقابل، وتفصله كل هذه السنوات.

ساعتان وأضع حداً لثلاثة عقود طارئة، أُوقف المؤقت في ساعتي، وأكف عن النظر إلى أوراق التقويم المعلقة. ساعتان ويبدأ عمر جديد، عمر منتظر.

«لا تنس البحث عن زوديتو». .

أسافر وحيداً أمضي متخففا إلا من حقيبة، ورواية لناود أعارني إياها محمود، عدا ذلك تركتُ كل الأشياء خلفي، ذاكرة حبلى، وأمنيات حارقة حوّلها الوقت إلى قائمة طويلة من الخيبات. فكرت أنه لا يليق عبور المسافة إلى زمن جديد، وأنا مثقل بأعباء الماضي. أردت التفرغ تماماً، التعري من كل التفاصيل، حتى أكون جاهزاً بما يكفي للقاء بحجم الوطن.

«لا تنس البحث عن زوديتو». .

كثيرة هي الأشياء التي ينبغي البحث عنها في إرتريا، أولها البحث عني، فبمجرد أن يتوقف الشتات، ستبدأ ملامحي في التشكل والاكتمال. سأبدأ في التعرف إليّ، سأتلمس وجهي، أختبر صوتي للمرة الأولى، أصرخ حتى أصاب بالصمم، وحده هذا الفعل، سيزيل أعواماً من الغربة بيني وبين صوتي، سيهدم جدران الهمس القائمة.

في إرتريا سأبحث عن أبجدية جديدة، سأستبدل لغتي البالية بأخرى أكثر وضوحاً، سأعطل مخارج الحروف وأستبدلها بمخرج وحيد يستقر في رأسي، وسأبحث عن زوديتو، سأحقق رغبة أمي، فبعد ساعتين لن يكون هناك متسع لشيء غير تحقيق الأمنيات.

«لا تنس البحث عن زوديتو». .

في مطار جدة تتكدس الوجوه القلقة، فالمطارات عادة هي آخر مشاوير الغربة أو هي مبتدأها.

أقلب بصري بين العابرين، لا أكاد أرى إلا حقائبهم، ففي المطارات تختصرنا الحقيبة، تنوب عنّا، عن أسمائنا وملامحنا، تحملنا

عوض أن نحملها. وبقدر ما خف وزن الحقيبة بقدر ما ثقلت غربتنا، بحيث لم نعد نطيق أن نضيف ثقلاً جديداً، أو لم نجد شيئاً يليق بتقاسم هذا الشقاء.

«لا تنس..»..

لن أنسى، فالنسيان فعل متعلق بالترف، تكاد تخلو منه قواميس الكادحين، إذ لا ينسى الجائع جوعه إلا حين يموت، بينما يتقلب المتخم في النسيان، لا يذكر متى كانت آخر مرة لأي شيء، يظل يمتلئ حتى يموت.

لن أنسى ففي النسيان خيانة للوجع، وحدها الأوجاع تصلح ذاكرة بديلة، أو تأريخاً موازياً، نستند إليه حين يعيينا الوقوف فرادى في طريق طويل وموحش.

يتفحص الضابط جوازي، ثم ينظر إلي، أبتسم على الفور، أحاول الاقتراب من الصورة قليلاً، شاسع هو الفرق بين ذواتنا والصور، فالأخيرة نحصل عليها بعد أن نجرب أكثر من مرة، لنتوقف في النهاية عند أفضلها، بينما لا تحظى ذواتنا بهذا الترف.

«فين رايح؟»..

قد لا يكون الضابط رأى تذكرة سفري، أو رآها لكنه يريد تطبيق إجراءاته الروتينية والتأكد من كل شيء. مثله كنت بحاجة لأتأكد مما يجري.. من اقتراب العد التنازلي من نقطته الصفر، من كوني على بعد خطوة واحدة من الوطن.

«إرتريا»..

نطقتُ بها مختلفة هذه المرة.

كنتُ أخاطب بها نفسي أكثر من مخاطبة الضابط. شعرت بها تنتشر في جسدي، تذوب فيه، تبدد آخر سحب الشك في أن يكون ما يجري غير حقيقي.

«ايش عندك هناك؟». .

سؤال معتاد في مطار جدة، لكنه لم يفقد قوته الصادمة إلى حد الآن، لفرط ما فيه من جناية على الخصوصية، ومع هذا وددت لو أجيب الضابط بكل صراحة، أن أخبره بحجم ما لدي هناك، بحجم ما تراكم من انتظار.

وددته يعلم كم هو «هناك» ممتلئ بأحلامنا المؤجلة، وأوجاعنا المكدسة تنتظرنا كلحظة بُرء أخيرة.

«بلدي». .

ليس سهلاً أن تبدأ متأخراً جداً في اكتشاف لغتك الأم، في المرور على مفرداتها دون التعثر بالتأتأة.

ليس سهلاً أن تجعل الأمور تبدو عادية جداً وأنت تلتقط أحرفك الجديدة من قاع الحريق.

«بلدي». . خرجتْ بِكراً كيوم سقطت من السماء لتستقر بين العينين. لم يلحظ الضابط -أو لعله فعل- كم هي طازجة شهية ممتلئة بالحياة.

ختم الضابط جوازي: ذهاب وعودة!

حيّرني الختم.. كان ينبغي أن يكون عودة وذهاباً.

ظننتني أعود. . أرجع. . ألتفت خلفي. . أتشظى في كل

اشتقاقات الجذر ع و د. وحدها العودة تلتصق بالوطن، تتماهى معه، تدل عليه.

أولا أشبه العائدين؟

ليس بعد!..

هذا ما يقوله ضجيج يملأ صالة السفر الأخيرة قبل صعود الطائرة.

وجوه على أهبة «الفلّة»، متحفزة للانقضاض على متع الوطن المتاحة بين الشوطين أو في وقت مستقطع من حياة رتيبة.

الجميع هنا مشغول بأسمرا ما بعد منتصف الليل. عليها وقّتوا ساعاتهم وأحلامهم.. وحتى حقائبهم

«ايش رأيك في هذه؟.. أكيد راح تعجبها»..

لا يبدو أن ثمة حرج في استدعاء الحميمية المنتظرة على الملأ. وحده هذا النوع من البطولات يحقق رواجاً بين العائدين.. أو الذاهبين.. لا يهم.

يزداد الضجيج كلما قلّ الوقت بيننا وبين الإقلاع. ومعه تتعرى أكثر الأشياء انزواءً.. وكأنها البروفة الأخيرة لحياة مختلفة.

أرى وجهك اليوم خارطة للبكاء
وعينيك تجري دماً أعجمياً

م. الثبيتي

«عمر» . .

سَرَتْ رَعْشَةٌ هَزّتْ جَسَدِي كُلَّه مَا إنْ جَاءَني صَوْتُ سَمْرَاوِيْتْ التي تَقِفُ الآنَ أَمَامي تَمَامَاً.

لم أكد أتبين ملامح وجهها/ صوتها، حتى اندفعتْ بين أحضاني، وبدأت في النشيج.

كان صوتها يخرج متقطعاً منهكاً وكأنه آت من أول العمر سيراً على الأوجاع.

«ما الذي حدث؟» . .

لم تسمعني.

لم أسمعني.

وحده النشيج كان سيد الوجع.

يعلو بكاؤها المر، يحط في حلقي مباشرة. أتجرعه لعله يخبرني. وقبل أن يفعل تحط دفعة وجع جديدة.

أعود برأسي للوراء قليلاً، أحاول سرقة شيء من وجهها يشرح لي

ما يجري، لكنها تلتصق بي أكثر.. تكاد تخترقني وتحرقني بأنفاسٍ تصب في رقبتي مباشرة.

بدأتْ وجوه مودرنا تحوم حولنا وكأنها تنتظر نهاية متوقعة يصبح بعدها اللحم حقاً مشاعاً لأول الواصلين.

تهرول سلام نحونا، تفض الوجوه المتكدسة عند مداخل الجرح، وتدخل:

«اشربي هذا الماء.. اهدئي.. كله خير.. كله خير»

هنا أخذ صوت سمراويت يهدأ، وكأنها بدأت تعي ما بعثرته عواصفها في المكان.

خَفَت الصوت تقريباً، دون أن ترفع رأسها عن صدري. حاولتُ بلطف لكنها تشبثت بي أكثر. هنا تدخلت سلام مجدداً وخاطبتها بالتغرنية بنبرة حانية وهي تمسح على رأسها، فبدأتْ يدها القابضة عليّ ترتخي.

مرّ الوقت كأنه دهر قبل أن يعود وجه سمراويت إليّ وهو مثخن بالوجع.

لم أنطق.

كنت أنتظرها عند حافة الرعب. معلّق من وريدي بغصن نحيل والهاوية تشدني إليها بنهم مفزع.

كنت رابضاً عند أهدابها، أجفف بقايا الملح وأنتظر، علّها...

«أمي رفضت زواجنا.. فعلتُ المستحيل لإقناعها.. لكنها كانت قاسية كما لم أعرفها من قبل.. خيرتني بين رغبتي وبينها.. انهار كل شيء يا عمر.. كل شيء»

كنت لا أزال رابضاً هناك أنتظرها، علّها. . .

«لم أكن أتخيل أن تكون نهايتنا مؤلمة إلى هذا الحد. . وأنا التي اعتقدت أنني بك بدأت حياة جديدة. . مختلفة»

علّها. . .

«حتى والدي الذي ظننته ملاذي الأخير. . انحاز لأمي. . رجوته. . توسلت إليه أن يرحم روحي. . أن يمنحني هذا العمر الذي انتظرته. . قال إنه يتفهم وضعي لكنه ملزم بالحفاظ على توازنات الأسرة. . هل رأيت؟. . والدي يتفهم وضعي. . كم أنا مثيرة للشفقة»

ولم أنطق.

بدأتُ أشعر بجفاف يزحف على روحي، يضمر أنضر ما فيها، يقتلع اخضرارها، ولا يبقى إلا الملح.

الملح. .

ألهذا تتراءى أمامي الآن كل الخيبات؟

«عمر. . سامحني. . تعلم أن أمي مريضة ولا أستطيع فعل شيء يفاقم مرضها. . أرجوك ساعدني على أن أشف منك. . وليس التورط فيك أكثر. . أعرف أن هذا لا يليق بك. . ولكن لأنك نبيل. . أطلب منك المستحيل حتى لا نبقى أسيرين لشيء لا نملكه. . أتمنى أن تفهمني جيداً»

انتهت سمراويت من كلامها/ مني.

تنظر إلي، تنتظرني علّني. . .

ولم أنطق.

أغمض عيني كي أركز في حجم التعاسة التي تسكن روحي.. لا أريد لشيء أن يبعثر انتباهي.

يتردد صدى زلزالها قوياً. أسمع أصوات انكسارات كثيرة داخلي. على وقع هذا الصمت الصاخب ألوك كلامها، أعيد سماعه، أبحث له عن معان أخرى غير هذا الذي ينثر الملح.

الملح..

ألهذا تتراءى أمامي الآن كل الخيبات؟

للحظة خطر لي كم تبدو سمراويت متعجلة في ارتداء هذه النهاية القاتمة. أردت فقط أن أخبرها أن ثمة أمل، لكنني كنت قد بلغت مداي، كنت منهكاً خائر الروح.

يتكثف الحزن بداخلي أكثر، أشعر به ما بين صدري وصدري، أنفثه وأعاود استنشاقه من جديد.

غرقتُ في الوحدة. لم يعد ثمة وجع يقابلني. انتقلت كل الأوجاع إلى وجهي.

وكنت لا أزال معطياً ظهري للمارة..

ألهذا تتراءى أمامي الآن كل الخيبات؟

يمر شيء مني.. بعض حزني، وكل أمنيات العمر.

هل لابد أن تكون الأمنيات عصية حتى يصبح لها قيمة؟

تمر جدة.. تكاد تلفظني بعد أن نبتت في أحشائي..

يمر النزلة.. وقد فقد وجهه القديم..

تمر مصوع.. توشك أن تموت واقفة..

تمر زوديتو.. لا تعود رغم ابتهالات أمي..

وتمر سمراويت.. وطن نجاة ينهي وحشة اغترابي..

لبعض الوقت.

يا للأسى.. حتى الوطن، بات مثلنا تماماً.. شيئاً طارئاً.

انتهى

حجي جابر

سَمراويتْ

قطع صوت الكابتن سيل الأفكار التي تموج في رأسي بصخب. دقائق وأكون في أسمرا التي تشكلت في مخيلتي من حكايات الأهل وبعض ما تبثه "إيري تي في".

بقدر ما انتظرت هذه اللحظة يسكنني الخوف، فحتى المدن تملك انطباعاً أول من شأنه أن يقصيك عن ذاكرتها، فلا تغدو سوى عابر لا أثر لك مهما علّمت قدماك في طرقاتها.

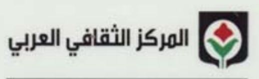
كنت مرعوباً من فكرة أن تعاملني أسمرا كمسافر الترانزيت، لا يكاد يحطُّ رحاله حتى تأخذه وجهة أخرى.

كنت مشتاقاً لأجد وجهتي الأخيرة.. وأنا المعتاد على الوجود الطارئ في الأماكن الطارئة.

لا يليق بي أن أقضي العمر كله مسافراً إلى مدينة.. ثم لا أجدها في استقبالي.. أن تنتهي علاقتي بها قبل أن تبدأ، وأنا القادم محمّلاً بالأمنيات في تأسيس ذاكرة جديدة وأشواق مكتملة.

كنت مرعوباً ألا تشكّل أسمرا سوى خيبة أخرى تضاف لرصيدي المتخم.

صورة الغلاف للمصور العالمي اريك لافورغ



الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب 113/5158
markaz@wanadoo.net.ma
cca_casa_bey@yahoo.com


ISBN 978-9953-68-557-1